الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



رواية

إيتالو كالفينو

الفسكونت المشطور

ترجمة : أماني فوزي حبشي

مراجعة : دكتور محب سعد

الفسكونت المشطور / ترجمة: أماني فوزي حبشي؛ مراجعة: محب سعد. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.

١٨٨ ص ؛ ٢٢ سم.

تدمك ٠ ٤٠٢ ٤١٩ ٩٧٧

١ ـ القصص الإيطالية

(أ) حبشي ، أماني فوزي (مترجم)

(ب) سعد ، محب (مراجع)

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٧٥٤/ ٢٠٠٦

I.S.B.N 977 - 419 - 402 - 0

ديوى ٨٥٣

الفسكونت المشطور

ترجمة : أمانى فوزى حبشى

مراجعة : دكتور محب سعد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٦

• الكتاب : «الفسكونت المشطور»
• الكاتب : إيتالو كالڤينو
• المترجمة : أمانى فوزى حبشى
• مراجعة : د. محب سعد
• العنوان الأصلى: I/Visconte dimezzato di italo calvino Istituto ita;ianodi calitura il cairo

• الطبعة الأولى ٢٠٠٦.
• التصميم الجرافيكى: دكتور مدحت متولى
• الإخراج الفنى: صبرى عبد الواحد

سلسلة الجوائز

تواصل **سلسلة الجوائز** تجديد نفسها فى الأعداد التالية، ومازالت تحاول جاهدة استيعاب أبرز ملامح المشهد الإبداعى عربيًا وعالميًا، هادفة إلى تقديم أعمال تتميز بالخصوصية والجودة، التى اتفقت عليها لجان متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتاب.

واستنادًا إلى الاحتفاء الذى لاقته السلسلة فى أعدادها العشرة الأولى، ومع تشجيع المثقفين والقراء، رأينا أن نعيد نشر بعض الأعمال الأدبية التي نالت جوائز قديمة، والتي شكلت علامة فارقة فى السرد العربى والعالمى، تلك الأعمال التى نالت منذ نصف قرن أو أكثر جوائز عالمية ومحلية، ولكن طبعاتها نفدت منذ فترة، ولم تعد متاحة للأجيال الجديدة؛ ولذا رأينا أن تضاف للسلسة أعداد خاصة مميزة لإلقاء الضوء على تلك الأعمال وهذه الجوائز من خلال عنوان فرعى هو «**ذاكرة الجوائز**».

وستكون باكورة هذه الأعداد الخاصة، نشر رواية «الفسكونت المشطور» 1952، للكاتب الإيطالى «إيتالو

كالڤينو» (1923-1958)، الحاصل على عشرات الجوائز المحلية والعالمية، والتى شكّلت ثلاثيته «الأسلاف» إضافة للسرد العالمى. كما نعيد نشر رواية «قرية ظالمة» 1954 الحاصلة على جائزة الدولة للأدب عام 1957، للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» 1901-1977.

هذه الرواية شكّلت نقطة مضيئة فى السرد العربى، وتم الاحتفاء بها حينذاك عربيًا وعالميًا، وترجمت إلى إحدى عشرة لغة، وكانت ومازالت إنجازًا أدبيًا، يسعدنا أن نعيد طبعه فى هذه السلسلة.

كما نواصل نشر ماتم ترجمته وإعداده لتقديم المزيد من الأعمال الجديدة الحائزة على جوائز تمتد من نوبل إلى الجوائز المحلية الكبرى فى كل بلدان العالم، لكى يضمن القارئ العربى قراءة عمل متفق على جودته وجديته، ولكى يتسنى له الاطلاع على أحدث الاتجاهات فى الكتابة الأدبية بكلّ أنواعها. ومنها «ثلاثة أيام عند أمى» للكاتب الفرنسى «فرانسوا ويبرجان» الحاصل على جائزة الجونكور2004، «المستبعدون» للكاتبة النمساوية«إلفريده يلنيك» الحاصلة على جائزة نوبل 2004، «أين تذهب طيور المحيط» للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» الحاصل على جائزة الدولة للتفوق 2003، «مارتش» للكاتبة الأمريكية «جير الدين بروكس» الحاصلة على جائزة البوليتزر عام 2006 ، «القلعة البيضاء» للكاتب التركى «أورهان باموق» الحاصل على جائزة الإندبندت.

د. ناصر الأنصارى

مقدمة
المراجع

إيتالو كالڤينو (١٩٢٣ - ١٩٨٥)

ولد إيتالو كالڤينو فى سانتياجو بلاس فيجاس (كوبا) عام ١٩٢٣، وقضى مرحلة شبابه فى مدينة سان ريمو بشمال إيطاليا أثناء اشتراكه فى حرب تحرير إيطاليا وعمليات المقاومة بها ضد الفاشية والنازية.

حصل كالفينو على شهادته الجامعية فى الآداب فى جامعة تورينو وعمل مع الكاتب الإيطالى الكبير شيرازى بافيزى فى هيئة التحرير بدار نشر إيناودى Einaudi بمدينة تورينو، ثم صار فيما بعد واحداً من كبار مستشاريها. وفى عام ١٩٥٩ اشترك مع الكاتب الإيطالى إليو فيتورينى Elio Vittorini فى إصدار إحدى الدوريات الإيطالية المهمة

(Menabo) التى تناولت بالعرض والدراسة مشاكل الثقافة المعاصرة.

اكتشفه بافيزى وشجعه على الكتابة فقدم فى باكورة أعماله الروائية (مدق أعشاش العنكبوت) وفى أول مجموعاته القصصية نموذجاً روائياً يتسم بالالتزام سواء من الناحية الايديولوچية أم السياسية. وكان لأدبه الملتزم هذا تأثير كبير على آراء النقاد حتى أن لفيفاً منهم التزموا بالتأكيد على أنه من أبرز كُتَّاب الواقعية الجديدة، لكن هذين العملين لم يقتصرا على تقديم مضامين تتسم بالالتزام الايديولوچى فحسب بل قدما هذه المضامين فى إطار خيالى وشكل خرافى استمر فى أعماله الروائية التالية "الفسكونت المشطور"، و"البارون طالع الشجرة" و"فارس بلا وجود". وهى التى ضمها الكاتب فيما بعد فى مجلد واحد بعنوان "أسلافنا"، وفيها عبر المؤلف عن واقع معين فى إطار تنويرى واستخدم الخيال والخرافة بمفهومهما الأخلاقى والتربوى. وقد يبدو تأكيدنا على الناحية الأخلاقية والتربوية غريباً لمن يقرأ هذه الثلاثية قراءة عابرة يرى فيها الجانب الخيالى والخرافى فقط دون أن يتعمق فى صلتهما بالواقع الاجتماعى فى ذلك العصر. إلا أن الثلاثية تؤكد اتجاه كالفينو إلى تناول العلاقات الاجتماعية والسياسية والأخلاقية المحيطة به كلما بدا وكانه يبتعد عما حوله أو تناول عصوراً قد ولت منذ زمن بعيد. نعم فى الثلاثية نجد أن الكاتب يستمتع بالقص ويتلذذ بعرض

ثقافته ولكن ما يثرى معانيها ويجعلها أكثر تأثيراً هو الجانب الأخلاقى الذى يمثل أساسها الذى لا يستهان به.

فما "الفسكونت المشطور" إلا إنسان القرن العشرين، ذلك الإنسان المستلب الذى شطره عصر الرأسمالية الجديدة إلى شطرين، وما هو إلا ذلك الإنسان الذى يتمزق فى عصر يتسم بالحرب الباردة بين قطبى العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين.

وتعبر هذه الرواية إلى جانب ذلك عن مدى إدراك الإنسان لنهاية الفترة السعيدة التى كان يرى انه قد سيطر فيها على مقاليد الأمور وأنه هو الذى قبض بيديه عى مسار التاريخ فاقترب من التكامل مع الحياة. أما وقد وجد الإنسان نفسه أسيراً وعبداً للأحداث التاريخية وليس سيداً مسيطراً عليها فلم يعد هناك شكل واحد متكامل يمكنه أن يعبر تعبيراً صادقاً عن الإنسان والتاريخ فى آن واحد، فالواقع المشطور لا يعبر عنه إلا شكل مشطور

"آه لو أمكن شطر كل ما هو كامل، فيخرج كل إنسان و يتخلص من كماله البليد الجاهل، كنت كاملاً وكانت الأشياء جميعها بالنسبة لى طبيعية ومختلطة، وتافهة مثل الفراغ؛ كنت أعتقد أنى أرى الكل فلم أكن أرى سوى القشرة، لو صرت نصف نفسك، وأتمنى لك هذا يا غلام، فستفهم أشياء تفوق الذكاء العادى

للعقول الكاملة، ستفقد نصفك و نصف العالم، ولكن النصف الباقى سيكون أعمق وأكثر قيمة ألف مرة. وسترغب أنت أيضاً فى أن يكون كل شىء مشطوراً وممزقاً على صورتك، لأن الجمال والحكمة والعدل موجودة فقط فيما هو مشطور.

تتناول رواية "الفسكونت المشطور" إذاً قضية الازدواجية التى تفرض فيها ازدواجية الواقع ذاتها على الشكل. فإذا كان الكمال يخفى فى طياته فشل أى شكل تام فى عالم ناقص فإن الشكل لابد أن يكون هو أيضاً ناقصاً مشطوراً أو مبتوراً. ثم أن نصف الفسكونت الشرير ليس هو الوحيد الذى يبرز مزايا انشطاره بل نجد أن النصف الخيّر يردد المفهوم نفسه قائلاً: "آه يا باميلا، هذه هى ميزة أن يكون الإنسان مشطوراً: أن يدرك ألم كل إنسان و كل شىء فى العالم، الألم الذى يمكن أن يشعر به كل منهم لعدم كماله. لقد كنت كاملاً ولكننى لم أكن أفهم، كنت أتحرك أصم لا أتواصل ولا أشعر بالآلام بين الجروح المنتشرة فى كل مكان، التى لا يمكن أن يصدقها من كان كاملاً، لم أكن هكذا وحدى يا باميلا، فأنا كائن مشطور ومنقسم ، ولكن هذا حالك أنت أيضاً و حال الجميع. هأنا الآن أشعر بأخّوة لم أكن أدرك وجودها عندما كنت كاملاً، أخوتّى لجميع تمزقات العالم ونقائصه، إذا جئتِ معى يا باميلا ستتعلمين أن تتألمى لمعاناة كل إنسان، ستعالجين آلامك وأنت تعالجين جراحهم."

نجد أن الإنسان يدرك تمام الإدراك انفصاله عن التاريخ رغم أنه صانعه، وهكذا نجد أن كمال الخرافة التقليدى لا يمكنه أن يستوعب هذا العالم الجديد الذى يتسم بانقسام لا يعبر عنه إلا شكل مستلب قادر على التعبير عن واقع بشرى مستلب؛ ذلك أن التعبير عن التوازن القديم بين الإنسان والتاريخ من خلال الخرافة لا يمكنه أن يعبر عن واقع اللحظة التاريخية فى النصف الثانى من القرن العشرين.

لكن كالفينو لا يستسلم للتشاؤم. فالشكل الناقص ليس تصويراً للاستلاب بل هو إدراك له يسعى إلى الوصول إلى كمال جديد؛ ولهذا نجد أن قصة الفسكونت تنتهى باتحاد شطرى ميداردو، ونجد أن آلة العجائب التى طالما حلم بها مداردو الطيب والتى يستحيل تحقيقها فى عالم الواقع، وأن آلات التعذيب التى يصممها بيتر وكيودو بناء على أوامر مداردو الشرير، تتحول كلها إلى مطاحن تظهر فى أرجاء مملكة مداردو بعد أن عاد إنساناً كاملاً.

إن اكتمال الفسكونت مداردو لا يكفى لاكتمال العالم، ولكن الكاتب أراد أن يشير إلى السعى نحو الكمال على اعتبار أنه مقصده وهدفه من ازدواجية الشكل. إن ازدواجية الشكل بين الحلم والواقع لا تعبر عن نقيضين بقدر ما تعبر عن قطبين متصارعين تصارعاً مستمراً يؤدى إلى التكامل بين الخرافة (الشكل) وبين الواقع التاريخى والسياسى. ومن

الواضح أنه من خلال قراءة كل أعمال كالفينو يمكننا أن ندرك عمق فكره واختياره بشكل أو بآخر فى إبداعاته الأدبية.

وفى رواية " البارون طالع الشجرة" نجد أن كالفينو ينتقل بقضية استلاب الإنسان إلى القرن الثامن عشر أى إلى عصر التنوير وكأنه بهذا يريد أن يؤكد أن التنوير والذى كان يحمل فى طياته إيجاد نوع من الاتساق والتناغم بين الإنسان والطبيعة والتاريخ، لم يدرك هذه الغاية، لأنه كان يحمل فى طياته كذلك بذور الشرور السائدة فى عصرنا. إن رواية "البارون طالع الشجرة" تروى لنا مغامرات "كوزيمو بيوفاسكو دى روندو" الذى رفض الحياة مع أهله وذويه فلجأ إلى شجرة أقام فوقها حتى النهاية، أى حتى تعلق بأحد أحبال سفينة إنجليزية عابرة فاختفت به فى عرض البحر. أما حياته فوق الشجرة وتنقلاته بين الأشجار فإنها نابعة من رفضه الحياة فى مجتمع فاسد سوف تقضى عليه الثورة الفرنسية، ولكن كوزيمو يختار بإرادته أن يحيا خارج هذا الصراع بين القديم والجديد وأن يغامر ويتعرض للمخاطر حتى يفهم ذاته ويدرك كيانه، إن القضية التى يختارها كوزيمو ويعبر عنها هى أن الإنسان لا يستطيع أن يحقق ذاته إلا من خلال الاندماج مع الطبيعة والحياة فيها.

وفى رواية "فارس بلا وجود" نجد الجانب الأخلاقى والتربوى نفسه، ولكنه يكتسب طابعاً سلبياً بمعنى أن بطلى الروايتين السابقتين كان أحدهما

مشطوراً وثانيهما يحيا فوق شجرة أما بطل هذه الرواية الأخيرة فهو غير موجود أصلا بل هو عبارة عن هيئة فارس لا وجود له، ومع هذا فإن هذا الفارس يجد ذاته فى هيئتها كما يجد الإنسان المعاصر ذاته فى وظيفته وعمله فلا يخرج من إطارها، ويعيش بعدًا واحدًا من أبعاد الحياة، ولكن فى مقابل اجيلولفو الفارس غير الموجود أحادى الأبعاد نجد كالفينو يضع فى روايته شخصية أخرى هى شخصية "جوردولو" وهى شخصية لها وجودها البيولوجى والفسيولوجى ولكن ما ينقصها هو الوعى بوجودها وتحقيق ذاتها.

إن هذه الثلاثية كما أسلفنا هى تعبير عن واقع الإنسان المعاصر وما ازدواجية الشكل إلا تعبير عن ازدواجية الواقع الحياتى والاجتماعى والسياسى السائدة فى الفترة التى ظهرت فيها "أسلافنا" للكاتب الإيطالى إيتالو كالفينو.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقدمة
المترجمة

أنت صالح ، يا صاحِ ، إذا كنتَ واحداً مع ذاتك.
وإذا لم تكُ واحداً مع ذاتك فأنت لست بالشرير.
لأن البيت المنقسم على ذاته ليس مغارة للصوص،
ولكنه بيت منقسم على ذاته، لا أكثر ولا أقل.

جبران خليل جبران (النبى)

يقول إيتالو كالفينو فى الطبعة الثانية لكتابه "أسلافنا" والتى نشرتها دار نشر إيناودى سنة ١٩٦٠ :

يمكن للنقاد أن يمضوا فى الطريق الخاطئ ويقولوا إن ما كان فى ذهنى هو عرض فكرة الخير والشر، لا لم يكن هذا ما أريده مطلقاً، بل أننى لم

أفكر لحظة واحدة فى فكرة الخير والشر. فكما يفعل الرسام عندما يستخدم التضاد فى الألوان ليظهر شكل ما، هكذا استخدمت أنا تضاداً روائياً واضحاً لأظهر ما يهمنى أى الانقسام.

فالإنسان المعاصر ممزق، منقسم، غير مكتمل، بل عدو لنفسه، يصفه ماركس بأنه "مغترب" وفرويد بأنه "مقمع"، فإن حالة التناغم القديمة قد ولت، وبدأنا نتطلع إلى نوع جديد من التكامل، تلك هى النواة الأيديولوجية الأخلاقية التى كنت أريد إضافتها بوعى للقصة، ولكن بدلاً من أن أعمل على تعميقها على الصعيد الفلسفىّ، فضلت أن أعطى للرواية هيكلاً يعمل عمل آلة متكاملة ثم أكسوها لحمًا ودماً من التراكيب الخيالية الغنائية.

هكذا تحدث كالفينو عن اهتمامه الأول: الانقسام، وهو موضوع كان سائداً فى البيئة السياسية والاجتماعية والأدبية فى الخمسينيات.

ألف كالفينو الثلاثية خلال عشرة أعوام ونشرت منفصلة: الفسكونت المشطور عام ١٩٥٢، البارون طالع الشجرة عام ١٩٥٧، فارس بلا وجود عام ١٩٥٩ وتم تجميعها بعد ذلك فى مجلد واحد عام ,١٩٦٠

عُرف كالفينو فى مصر من خلال عدة ترجمات أهمها آخر أعماله "الوصايا الست للألفية القادمة" والذى كانت عبارة عن محاضرات ألقاها فى إحدى الجامعات الأمريكية، وقامت زوجته بتجميعها ونشرها

بعد وفاته. وقد ظهرت أكثر من ترجمة إلى العربية لهذا العمل، أشهرها ترجمة محمد الأسعد والتى نشرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب فى سلسلة آداب عالمية. فى تلك المحاضرات الخمس (حيث لم يسمح القدر له سوى بكتابة عنوان المحاضرة السادسة) يحاول كالفينو وضع وصاياه حول استراتيجية الكتابة الأدبية وفيها يتحدث عن الخفة والسرعة، الدقة والوضوح، والتعددية أما العنوان السادس فقد كان التماسك وهى المقترحات التى يشرح كالفينو أهمية تطبيقها فى العمل الإبداعى.

ولكن لماذا اخترتُ أنا فى الوقت الحالى ترجمة ثلاثية "أسلافنا" إلى العربية؟

السبب الأول الذى دفعنى لاختيار هذا العمل هو ذلك الشعور بالدهشة لما يمكن أن يصل إليه خيال المبدع ليعبر عن أفكاره، فلقد اختار كالفينو ثلاثة أنماط من الشخصيات الخيالية وعمل على إقناعنا من خلال رواياته بمصداقية ما يتحدث عنه، فجعل الأحداث التاريخية المعروفة جزءًا من الحكاية الخيالية، بل وأطلق على أبطال رواياته الثلاثة "أسلافنا". أسلافنا الثلاثة أحدهم مشطور يعيش كل جزء منه منفصلاً تمامًا عن الآخر، أحدهما شر مطلق والآخر خير مطلق، والثانى يتمرد على الحياة والسلطة الأبوية والمظاهر فيتسلق الأشجار، ويقرر

أن يعيش فوقها، ولا يتراجع فى قراره هذا حتى بالموت. أما الثالث فلا وجود مادى له، فوجوده معنوى يعتمد على إنجازه فى إنقاذ عذراء شابة والشرف والمجد الذى حصل عليهما والذى بدونهما يتلاشى ويعود إلى العدم من حيث جاء.

بالإضافة إلى الدهشة والإعجاب بقدرة كالفينو على نقل القارئ إلى ذلك العالم الخيالى المغلف ببعض الحقائق، والممتع، فما شجعنى أيضًا على الخوض فى تلك التجربة هو الشعور بأننى أعيش فى بيئة مليئة بالمتناقضات، يبحث كل منا من خلالها عن هويته الحقيقية، وعن الطريق الصحيح ولا يعرف كيف يقوم بالاختيار، فإن معنى الخير والشر الموجود بداخل النفس البشرية هو الذى أثار اهتمامى وذلك أولاً فى رواية الفسكونت المشطور.

"هكذا كنا نقضى حياتنا بين أعمال الخير والرعب. فالجزء الأيسر من خالى الذى كان يسمى "الطيب" كان يُعتبر فى عداد القديسين، على النقيض من "الشرير" وهو الجزء الآخر.

أما فى رواية البارون طالع الشجرة فكانت خبرة التمرد إلى أقصى حدوده، عندما يصبح التمرد اختيارًا للحياة، عندما يصبح اختيارًا لا يمكن التراجع عنه حتى الموت، بالرغم من تعرضه للعديد من المآزق والإحباطات: صعدت فوق السلم، وبدأت أقول له : كوزيمو، مضى من عمرك الآن خمسة وسبعون

عامًا، كيف يمكنك الاستمرار هناك فوق الأشجار؟ الآن وقد قلت بالفعل ما أردت قوله، وقد فهمناه، لقد كانت قوتك النفسية عظيمة جدًا واستطعت تنفيذ ما قلته، الآن يمكنك النزول. حتى من يقضى عمره كله فى البحار يرسو على الأرض عند بلوغه سن معينة. ولكن هيهات. أشار بالرفض بيده.

ولكنه اختيار يعبر أيضًا عن رفض المجتمع بريائه الاجتماعى وما يترتب عليه من تصرفات وضرورات لا طائل منها، إنها رؤية الحياة من منظور مختلف جعلت كوزيمو البعيد فوق الأشجار أقرب لأسرته - بطريقته - من فوق الأشجار، بل وأقرب أيضًا لمن حوله من أشخاص والاقتراب من أنماط مختلفة من الشخصيات كان من المستحيل التعرف عليها فى وجود التقاليد الأرستقراطية البالية والسور العالى الذى يفصل بينه وبينهم، وكان اقترابه منهم ومن احتياجاتهم هو الذى دفعه بالتالى لمحاولة توعيتهم، نقل ما تعلمه من الكتب التى قرأها، فأعد مجلات الحائط والمنشورات التى كانت تدعو للحرية وتعرفهم بحقوقهم، والتى كان يعلقها فى كل مكان فوق الأشجار. وكأن كالڤينو يحاول فى شخصية كوزيمو أن ينقل صورته المتخيلة عن المبدع والمثقف، ذلك الذى يعيش مبتعدًا عن الأرض (ربما فى عالمه الخيالى) ولكنه من هناك يستطيع أن يرى بصورة أفضل وأكثر شمولا العالم أسفله، ومن ثم يمكنه أن يساعد أيضًا فى تطوير وتغيير هذا العالم.

واحتفاء المؤلف بالقراءة فى هذه الرواية جلى، فالقراءة هى التى غيرت أعتى المجرمين "جان داى بروجى"، فلقد حررته الروايات وأبطالها من شروره، وكأن روحه قد أصبحت أكثر نقاءً وسموًا بالقراءة وأكثر ابتعادًا عن الماديات، ومنحت لكوزيمو القدرة على الاستمرار والبقاء بين فروع الأشجار، كانت رفيقه المخلص الذى لم يتخل عنه، بل وساعده على اكتشاف العالم أسفله:

أما جان داى بروجى فكان يجلس مستلقيًا على مرقده، وشعره المجعد الأحمر الملىء بالأوراق الجافة يتدلى على جبهته المتجعدة، وكان يقرأ بعينيه الخضراوين واللتان احمرتا بسبب إجهادهما فى القراءة. (...) . ومن خلال قراءته لريتشاردسون أخذ شعور كامن فى نفسه يجتاحه، تلك الرغبة فى الحياة المعتادة والعائلية، فى الشعور بالمشاعر الأسرية، والفضائل، وعداوة الشرور والرذائل، وفقد كل ما حوله أهميته بالنسبة إليه، بل أصبح يملؤه بالنفور.

وفى رواية "فارس بلا وجود" نجد أن كالڤينو يعرض لنا ذلك البحث المضنى عن الذات، البحث عن الهوية الضائعة، فالأحداث المتشابكة تجمع فى طياتها حدثًا وفكرة واحدة، فالأبطال جميعهم يبحثون عن وجود ما. فذلك الفارس الذى لا يجد نفسه إلا فى اللقب الذى حمله حيث لا وجود مادى له، والذى بمجرد إثارة الشك فى عدم مصداقية إنجازه، يختفى من الوجود ويتلاشى، وكأن وعى الإنسان بعمل ما، أو إنجاز ما فى الحياة هو

سر البقاء، هو سر وجوده، فهناك فارس بلا وجود، وشخص موجود (جوردولو) إلا أن وجوده خال من الوعى، محروم من الإدراك فهو لا يعرف شيئًا عن وجوده فيتماثل بالتالى مع كل المخلوقات:

- آه يا للروعة! أنا هنا أمام أحد رعاياى موجود ولكنه لا يعرف ذلك، ولدى ذلك الفارس هناك الذى يعرف أنه موجود ولكنه غير موجود. أؤكد لكم أنهما يصنعان معًا زوجًا جيدًا!

وكان المثير لى كمترجمة فى الرواية فارس بلاوجود، هو وجود صورة للمترجم فى الحروب فى ذلك الوقت، ذلك الذى نظرًا لأنه يعرف كيف تقال الأشياء بلغتين مختلفتين، يتعرض للمخاطر، وللقتل أحيانًا كثيرة، وهى صورة تمثل اليوم - إلى حد كبير - صورة المترجمين فى مناطق الصراع والحروب الحالية، فى العراق وأفغانستان، صورة أصبح لها أهميتها فى الوقت الحالى حتى أفرد لها دارسو الترجمة[١] والأدباء[٢] صفحات، بل ونالت اهتمامًا أيضًا من أهل هوليوود[٣] يقول كالفينو عن المترجم فى ميدان المعركة:

---

١ - ظهر أخيرًا باللغة الإنجليزية العديد من الكتب التى تتناول المترجم فى خضم الصراع ومنها كتاب Baker Mona, Translation and Conflict, Rougledge, 2006.

٢ - منا رواية المترجمة للراوية ليلى أبو العلا Aboulela, Leila (1999) The Translator, Edinburgh: Polygon.

٣ - فيلم The Interpreter عرض عام ٢٠٠٤ وقامت ببطولته نيكول كيدمان وشون بين، ويظهر فى الفيلم كيفية إقحام مترجمى الأمم المتحدة أحيانًا فى الصراع السياسى.

وهنا كانت درجة السباب وقوته حاسمة، لأنه حسب نوع الإهانة، مميتة كانت أو دموية، أو غير محتملة، متوسطة أو خفيفة، كان الأمر يتطلب ردود فعل مختلفة، وأيضًا يتبعها كراهيات لا يمكن إصلاحها، وتتوارثها الأجيال التالية. لذلك كان غاية فى الأهمية أن يفهم كل طرف ما يقوله الطرف الآخر، وهو الأمر الذى لم يكن سهلاً بين المغاربة والمسيحيين، وبوجود لغات مغربية ومسيحية مختلفة فيما بينها، وإذا لحقك سباب لا يمكنك فك شفرته، ماذا يمكنك أن تفعل؟ كان عليك إذًا الاحتفاظ به، وربما تبقى ملطخًا به طوال حياتك. ولذلك، ففى تلك المرحلة من القتال كان يتدخل المترجمون، كانت فرقة سريعة ترتدى درعًا خفيفة وتمتطى خيولاً خاصة صغيرة الحجم، وكانت تدور فى الجوار حول المحاربين، كانوا يلتقطون على الفور السباب ويترجمونه إلى لغة المستمع.

وبالنسبة إلى أولئك المترجمين كان هناك اتفاق ضمنى بين الطرفين على عدم المساس بهم، بالإضافة إلى أنهم كانوا يسيرون بسرعة شديدة، وفى تلك الفوضى، لم يكن من السهل قتل محارب ثقيل يمتطى جوادًا منتفخًا يسير بصعوبة لما وضعوه فوقه من دروع كثيرة، فلنتخيل إذًا وضع هؤلاء الذين يقفزون بحركاتهم السريعة، ولكن كما هو معروف فالحرب هى الحرب، وكل فترة تترك ضحاياها. أما هم، ولأنهم

يعرفون كيف تُقال "يا ابن العاهرة" بلغتين، كان لا بد أن يكون لهم نصيبهم فى المخاطرة.

الراوى فى الثلاثية:

يقول كالفينو فى مقدمته للثلاثية التى ألفها عام ١٩٦٠ عن اختياره لوجود راوٍ من شخصيات الرواية جاء رغبة منه فى أن ينقل جزءًا من تركيزه على الحدث إلى عملية الكتابة ذاتها و "إلى العلاقة بين تركيبة الحياة وبين الورقة التى أعرض عليها تلك التركيبة على شكل علامات هجائية".

وقد اختار كالفينو راويًا فى كل من الروايات الثلاثة، ففى الفسكونت المشطور اختار الصبى الصغير، فكالفينو يرى أن ليس هناك أدق من رؤية الطفل للأحداث حوله. أما فى البارون طالع الشجرة فنجد أنه قد خلق نوعًا من التناقض بين شخصية الراوى، الأخ الخاضع والذى يميل لاتباع قواعد وتقاليد المجتمع فى حياته، والذى ينقل من خلال حكيه هذا ـ بين السطور- دفاعه عن اختياره هذا للحياة التقليدية العادية، ولكنه لا يستطيع مع ذلك إخفاء إعجابه بجرأة أخيه وقدرته على اختيار مسار حياة مختلف وتمرده على القدر الذى حاولت أسرته أن تفرضه عليه.

ولكن فى رواية فارس بلا وجود ينقلنا المؤلف إلى نوع آخر من العلاقات بين الراوى والرواية، فيها يتوقف الراوى عن رواية الأحداث التى ينقلها ليتحدث

عن تقنية الكتابة، ووضعه هو، ويعرفنا أكثر بنفسه وبهويته. ومن خلال تلك العلاقة يقترب الراوى من المؤلف فى محاولة لنقل معاناته أثناء التأليف والإبداع. يقول كالفينو: وعندئذ فكرت فى أن أعزل جهدى فى الكتابة صانعاً منه شخصية: فابتدعت شخصية الراهبة الكاتبة، وكأنها هى التى تقص الرواية، وقد ساعد هذا على منحى دفعات أكثر استرخاء وتلقائية وساعد فى استكمال كل شئ. حيث تتضح لنا منذ بداية معرفتنا بالراهبة الراوية فى بداية الفصل الرابع تلك الإشكالية والتى تحاول هى بكل الطرق والصور نقلها لنا وخاصة فى بداية الفصل السابع عندما تقول: أبدأ فى الكتابة بحماس ولكن منذ ساعة والريشة لا تقطر سوى ذرات حبر، ولم تعد تجرى فيها نقطة حياة. فالحياة كلها بالخارج.

وما تحكيه هى عن ريشتها وتوقف الحياة فيها يعيدنا إلى الفقرة الأخيرة فى البارون طالع الشجرة عندما يتحدث الأخ الراوى بدوره عن رؤيته هو لفعل الكتابة: يشبه ذلك الخيط من الحبر الذى تركته ليجرى من صفحة إلى أخرى يملؤها الشطب والإحالات، وعلامات العصبية، والبقع والثغرات.

فالراوى من خلال إمساكه بطرف الخيط، أو ريشته مع المؤلف يرسم لنا خطوط روايته التى يحاول أن يشرح لنا كيف كانت تنفلت منه أحيانًا أو تتمرد عليه ولا تقطر سوى الحبر والبقع، لتخلق منها فى النهاية عملاً إبداعيًا من كلاسيكيات الأدب العالمى.

إيتالو كالفينو

ولد إيتالو كالفينو فى سانتياجو بلاس فيجاس فى الخامس عشر من أكتوبر ١٩٢٣

ويقول فى سيرته الذاتية :" وُلِدت من أبوين عالمين، كان أبى مهندساً زراعياً وأمى عالمة نباتات، وكان كلاهما أستاذًا فى الجامعة، كانت الدراسات العلمية فقط هى التى تحوز على التقدير فى عائلتى؛ كان خالى عالماً كيميائياً، أستاذاً جامعياً متزوجاً من عالمة كيمياء، وكان أخى عالم جيولوچيا، وهو أيضاً أستاذ جامعى، كنت أنا الابن الضال الوحيد فى العائلة إذ كنت أعمل بمجال الأدب".

ومنذ طفولته، تعلمّ كالڤينو أن يتعرف على الطبيعة ويحبها، وذلك تحت رعاية والده العالم وزارع النباتات النادرة فى الحديقة، وكان والده يلقنه أسماء الطيور والنباتات والحيوانات.

وبالرغم من تقدمه فى السن إلا أن كالڤينو احتفظ دائماً فى قلبه بفترة الطفولة وبالذكريات السعيدة للحظات استمتع بها .

بدأ كالڤينو يتجه للكتابة بعد أحداث الحرب، عام ١٩٤٥ ثم التحق بكلية الآداب جامعة تورينو فى سنة ١٩٤٦ فى الصف الثالث حيث أدى جميع الامتحانات، وكتب عدة مقالات أدبية فى جريدة " Unita`_ .

وبمساندة شيزارى بافيزى تم تعيينه فى دار نشر إيناودى وساعده أيضاً عمله فى دار النشر على القراءة وعلى كتابة أعماله.

وفى عام ١٩٤٧ بدأ فى نشر أولى رواياته " مدق أعشاش العنكبوت Il Sentiero dei nidi ragno ، ومنذ ذلك الحين نشر عدة مجموعات روائية من أهمها: "الحواديت الإيطالية" ١٩٥٦، أجدادنا ١٩٦٠، مدن لا مرئية ، ١٩٧٢، ومجموعته القصصية ماركو فالدو التى كتب قصصها الأولى فى بداية الخمسينيات صورت إيطاليا الفقيرة وقصصها الأخيرة فى الستينيات بعد أن انتعش الاقتصاد فى إيطاليا.

حصل إيتالو كالڤينو على جائزة "فيلترينيللى" عام ١٩٧٢ من أكاديمية لينشى.

أسلافنا

مقدمة المؤلف

جمعت فى هذا الكتاب ثلاث قصص كتبتها فى عقد الخمسينيات. إن ما يجمع بين هذه القصص الثلاث هو الخيال فأحداثها تقع فى أزمنة سحيقة وأمكنة متخيلة. وعلى الرغم من الاختلافات بين هذه القصص فإن هذه الخصائص المشتركة تجعلنى أسميها "حلقة" بل "حلقة متكاملة"، أى منتهية؛ ذلك لأنى لا أنوى أن أكتب قصصاً أخرى من هذا النوع. وها قد أتيحت لى الفرصة لأعيد قراءة هذه القصص ولأحاول أن أجيب على أسئلة كنت أغض الطرف عنها كلما خطرت لى على بال: لماذا كتبت تلك القصص؟ ماذا أردت أن أقول؟ وما الذى قلته بالفعل؟ وما دلالة هذا النوع من السرد القصصى فى إطار الأدب اليوم؟

في البداية كنت أؤلف قصصاً تتبع مذهب "الواقعية الجديدة"، كما كانوا يسمونها فى ذلك الوقت، أى أننى كنت أحكى قصصاً حدثت ليس لى ولكن للآخرين، أو كنت أتخيل إمكانية حدوثها أو أتخيل أنها حدثت بالفعل، و"الآخرون" كانوا أناسًا "من الشعب" ولكن غالباً ما كانوا حالات استثنائية. على كل كانت شخصيات غريبة يمكن تقديمها فقط من خلال كلماتها أو إيماءاتها، دون أن أبحث كثيراً فى خلفياتها الفكرية أو العاطفية، كنت أكتب جملاً مختصرة وسريعة، كان كل ما يهمنى هو انطلاقة معينة أو سلوك معين، وكانت تعجبنى القصص التى تدور أحداثها فى الهواء الطلق وفى الأماكن العامة، كالمحطات وكل تلك العلاقات الإنسانية بين الأشخاص الذين يتقابلون عن طريق الصدفة؛ ولم تكن تهمنى - وربما لم أتغير كثيراً منذ ذلك الوقت _ الحالة النفسية، والباطنية والأمور الداخلية والحياة العائلية والعادات والمجتمع (وخاصة إذا كان مجتمعاً صالحاً)

ولسبب ما بدأت بقصص المناضلين من رجال المقاومة إذ أنها كانت تحقق نتائج ناجحة حيث كانت قصصاً مليئة بالمغامرات والحركة، وطلقات الرصاص، كانت قاسية ومرحة إلى حد ما، مثل روح هذا العصر، و تتميز بروح "الإثارة" التى تشبه الملح فى الرواية، وكتبت أيضاً رواية قصيرة عام ١٩٤٦ بعنوان "مدق أعشاش العنكبوت"، وفيها أخذت أصبغ

كل شيء بقسوة الواقعية الجديدة، و لكن بدأ النقاد يقولون إننى "أسطورى"، وفهمت أصول اللعبة: أدركت جيداً أن الكاتب يحصل على هذا التقدير عندما يكتب بشكل أسطورى وخرافى عن مشاكل الطبقة الكادحة، أو عن أخبار الحوادث، ولكنه لا يمكن أن يكون أسطورياً إذا كتب عن القصور و البجع إذ أن ذلك لا يتطلب أية مهارة.

وهكذا حاولت أن أكتب روايات تتبع اتجاه الواقعية الجديدة، تحكى عن حياة الشعب فى تلك الأعوام، ولكنها لم تحظ برضاى فتركتها كما هى بخط اليد فى درج مكتبى. فإذا أخذت أحكى بنبرة مرحة، كان الأمر يبدو مصطنعاً؛ فالحقيقة كانت معقدة جداً؛ وكان كل أسلوب أدبى استخدمته للتعبير عن هذا الواقع يبدو مصطنعا، وإذا استخدمت نبرة أكثر جدية وتأملاً كان كل شيء يتحول إلى اللون الرمادى، للحزن، وكنت أفقد أية بصمة تشير إلىّ، أى الدليل الوحيد على أن من يكتب هو أنا وليس شخصاً آخر. لقد كان جرس الأشياء هو الذى تغيّر؛ فلقد تباعد زمن الحياة المنفلتة إبان فترة المقاومة وفترة ما بعد الحرب، ولم يعد المرء يصادف كل تلك الأنماط الغريبة التى كانت تحكى قصصاً استثنائية، أو ربما كنت ما زلت أصادفهم، ولكننى لم أعد أتعرف على نفسى من خلالهم ومن خلال قصصهم، واتخذت الحقيقة مواقف مختلفة وطبيعية فى مظهرها الخارجى، وأصبحت تلك الحقيقة حقيقة مؤسسية،

فلم يعد من السهل رؤية الطبقات الشعبية إلا من خلال المؤسسات التى تمثلها؛ وأصبحت أنا أيضاً منضماً إلى فئة لها وضعها القانونى، فئة المثقفين فى المدن الكبرى، بحللهم الرمادية وقمصانهم البيضاء. ولكنى فكرت: ما أسهل إلقاء اللوم على الظروف الخارجية، ربما لم أكن كاتباً حقيقياً، ربما كنت شخصاً كتب مثل كثيرين مأخوذاً بفترة التغييرات؛ ثم انطفأ بداخله هذا الحماس.

وهكذا، بغصة فى نفسى وبإحساس المرارة من كل شىء حولى، شرعت فى كتابة الفسكونت المشطور عام ١٩٥١ لاستغلال وقت الفراغ، لم يكن لدى أى غرض، ولم أكن أنوى اتباع اتجاه أدبى معين دون غيره، ولم تكن نيتى أيضاً استخدام الرموز الأخلاقية،أو حتى العمل السياسى بمعناه الضيق، كنت بالفعل متأثراً ـ وإن لم أدرك ذلك ـ بالجو السائد فى تلك الأعوام، فلقد كنا فى قلب الحرب الباردة، وكان يسود حولنا نوع من التوتر والتمزق الأبكم اللذين لم يظهرا فى صورة مرئية، ولكنهما كانا يسيطران على نفوسنا. ودون أن أدرى وجدت نفسى أكتب رواية خيالية تماماً وأعبر ليس فقط عن معاناة تلك اللحظة الخاصة ولكن أيضاً عن محاولة الخروج منها؛ أى أننى لم أقف مكتوف اليدين أمام الواقع السلبى، ولكننى نجحت فى أن أبث فيه الحركة و الغرابة، القسوة والاقتصاد فى التعبير والتفاؤل القاسى؛ وهذه جميعاً كانت عناصر أدب المقاومة.

لم يكن لدى فى البداية سوى هذا الدافع، مجرد قصة فى ذهنى أو الأفضل أن نقول إن القصة كانت مجرد صورة فى ذهنى. ففى أصل كل رواية كتبتها كانت هناك صورة تدور فى رأسى- لا أعرف كيف ولدت _ وأجد نفسى مهموماً بها ربما لسنوات. ورويداً رويداً أجد نفسى أعمل على تطوير تلك الصورة لتصبح قصة لها بداية ونهاية، وفى الوقت ذاته أقنع نفسى بأن هذه القصة تحتوى على معنى ولكن عادةً ما كانت هاتان العمليتان تتمان بشكل متواز ومستقل. وبمجرد أن أبدأ الكتابة يتكشف لى كل ما كان معلقاً كما أشرت تواً. بالكتابة فقط يمضى كل شىء فى ذهنى إلى مكانه الصحيح.

منذ فترة قصيرة كنت أفكر فى رجل انشطر طولياً إلى نصفين ، وكل نصف منهما ذهب إلى حال سبيله. هل هى قصة جندى فى حرب حديثة؟ ولكن استخدام أسلوب الهجاء فيما يتعلق بهذه الحرب قد صار مستهلكاً، ورأيت أنه من الأفضل تناول حرب من الزمن البائد، الأتراك مثلاً. وماذا عن الإصابة؟ هل تكون بسبب سيف؟ لا، الأفضل أن تكون بسبب طلقة مدفع، وهكذا سيكون الاعتقاد أن هناك جزءاً قد دمر تماماً، ولكنه سيظهر فيما بعد. ولكن أكان لدى الأتراك مدافع؟ نعم، ليكن موضوعنا هو الحروب بين النمسا والأتراك فى نهاية القرن السابع عشر، فى عصر الأمير اوجينيو. وعلى أن يبقى كل شىء مبهماً إلى حد ما، فالرواية التاريخية لم تكن تهمنى (بعد).

إذاً ينجو أحد النصفين، ويظهر النصف الآخر فى وقت لاحق، ولكن كيف يمكن التمييز بينهما؟ إن طريقة التأثير الأكيدة هى أن يكون هناك نصف طيب ونصف شرير، تضاد على طريقة ستيفنسون مثل دكتور جيكل ومستر هايد، أو الأخوين فى رواية سيد بالانترای. وهكذا نظمت القصة نفسها على أساس شكل هندسى دقيق، وكان يمكن للنقاد أن يمضوا فى الطريق الخاطئ ويقولوا إن ما كان فى ذهنى هو عرض فكرة الخير والشر، لا لم يكن هذا ما أريده مطلقاً، بل أننى لم أفكر لحظة واحدة فى فكرة الخير الشر. فكما يفعل الرسام عندما يستخدم التضاد فى الألوان ليظهر شكل ما، هكذا استخدمت أنا تضاداً روائياً واضحاً لأظهر ما يهمنى أى الانقسام.

فالإنسان المعاصر ممزق، منقسم، غير مكتمل، بل عدو لنفسه، يصفه ماركس بأنه "مغترب" وفرويد بأنه "مقمع"، فإن حالة التناغم القديمة قد ولت، وبدأنا نتطلع إلى نوع جديد من التكامل. تلك هى النواة الأيديولوجية الأخلاقية التى كنت أريد إضافتها بوعى للقصة، ولكن بدلاً من أن أعمل على تعميقها على الصعيد الفلسفىّ، فضلت أن أعطى للرواية هيكلاً يعمل عمل آلة متكاملة وأن أعطيها جسداً ودماً من التراكيب الخيالية الغنائية.

ولم أستطع أن أحمّل البطل وحده نموذج أنماط تمزق الإنسان المعاصر، إذ إنه كان يكفيه أن يمضى قدماً بأحداث القصة وآليتها، لذلك وزعت هذا

التمزق على بعض الشخصيات المحيطة به، كانت إحدى تلك الشخصيات هى شخصية المعلم بيتروكيودو النجار والتى يمكن أن أقول إنها الشخصية الوحيدة التى لها دور أخلاقى خالص وبسيط، وهذا الشخص يصنع مشانق وأدوات تعذيب دقيقة ومتطورة محاولاً ألا يفكر فى مجال استخدامها ، هكذا مثلما يفعل العالم أو التقنى اليوم عندما يصنع قنابل ذرية أو حتى عادية دون أن يعرف فى أى مجتمع ستستخدم، ويظل التزامه الوحيد هو "إجادة صنعته" غير كاف لتهدئة ضميره، وموضوع العالم "الصرف" المحروم (أو غير الحر) من التكامل مع الإنسانية الحية يظهر أيضاً فى شخصية الدكتور تريلاونى، والتى ظهرت بطريقة مختلفة تماماً وكأنها صورة مصغرة لازدواجية ستيفنسن، تستدعيها كل الدلالات الأخرى لهذا المناخ، واكتسبت بذلك نوعاً من الاستقلالية النفسية.

و تنتمى "مجموعتا" مرضى الجذام والهوغونيين إلى شكل من أشكال الخيال أكثر تعقيداً، فهما تشكلان خلفية غنائية خيالية للرواية قد تكون مرتبطة بالتقاليد التاريخية القديمة المحلية لقرى مرضى الجذام (فى أرض ليجوريا أو بروفينسا، ومجموعات الهوغونيين الهاربين من فرنسا فى كونييزى، وذلك بعد إلغاء قرار "كانت" أو قبل ذلك أيضاً، بعد ليلة القديس بارتولوميو) . فلقد ظهر مرضى الجذام ليمثلوا لى اللذة، وعدم المسئولية

والسقوط السعيد، والعلاقة بين النزعة الجمالية والمرض، أى بطريقة ما مذهب الانحطاط الفنى والأدبى المعاصر، ليس فقط ولكن أيضاً ذلك المذهب الموجود منذ الأزل (أركاديا). ويمثل الهوغونيون الانقسام المضاد، الأخلاقيات، ولكن بوصفهم صورة لشىء أكثر تعقيداً حيث يدخل فى ذلك نوع من السر العائلى (افتراض أصل اسم عائلتى لم يتأكد حتى الآن)؛ فهو تصوير (هجائى وملىء بالإعجاب فى الوقت ذاته) للأصول البروتستانتية للرأسمالية كما وصفها ماكس فيبر، وبالتالى لأى مجتمع آخر مبنى على الأخلاقيات الفعّالة؛ وهو استدعاء مفعم بالتعاطف وخال من الهجاء لأخلاقيات دينية بلا دين.

ويبدو لى أن كل الشخصيات الأخرى لرواية الفسكونت المشطور لا معنى لها سوى وظيفتها فى الحبكة الروائية، بعضها خرج بصورة جيدة بالفعل - أى اكتسب حياة حقيقية - مثل المربية سيباستيانا، والفسكونت إيولفو أيضاً بالرغم من ظهوره الخاطف. أما عن شخصية الفتاة (الراعية باميلا) فقد كانت مجرد نموذج للواقعية الأنثوية فى مقابل لا إنسانية المشطور.

وماذا عن مداردو المشطور؟ لقد قلت إنه كان يتمتع بحرية أقل من الآخرين؟ فمسيرته محددة مسبقاً لتتفق مع الحبكة الروائية، ولكن بالرغم من

كونه محدوداً هكذا إلا إنه نجح فى أن يظهر غموضاً عميقاً يتوافق مع شىء، لم يكن قد اتضح بعد فى ذهن المؤلف، كان هدفى المؤكد هو محاربة كل انقسامات الإنسان، والبحث عن الإنسان الكامل. ولكن الواقع أن مداردو الكامل الذى ظهر فى البداية، بعدم حسمه، لم تكن له شخصية أو شكل، أما مداردو الذى أعيد اكتماله فى النهاية فلم نعرف عنه شيئاً؛ ذلك أن الذى عاش فى الرواية هو فقط مداردو عندما كان منقسماً على ذاته، والنصفان، هاتان الصورتان المتضادتان لما هو غير إنسانى، صارا أكثر إنسانية فلقد كانا يحركان علاقة متضادة، النصف الشرير التعس يثير الشفقة، والنصف الطيب الأكثر تألماً يثير السخرية، وكنت أجعل كل منهما يتغنى بمديح الانقسام وكأنه أفضل طريقة للوجود، ويصب اللعنات على "الكمال البليد"، وذلك من خلال وجهتى النظر المتضادتين. أيكون السبب هو أن الرواية ولدت فى عصر من الانقسامات فأصبحت تمثل على الرغم منها الضمير الممزق؟ أو بالأحرى لأن التكامل الإنسانى الحقيقى لا يكون مجرد سراب لكمال أو كونية غير محددين أو متاحين، وإنما يكون فى البحث المتعمق المدقق فيما نحن عليه طبيعياً وتاريخياً وفى ذلك الاختيار الإرادى الشخصى، أو لبناء ذات أو تخصص، أو مجرد اختيار أسلوب أو مجموعة من الدلالات الشخصية الداخلية والتنازلات الفاعلة، التى يجب أن نستكملها حتى النهاية؟! كانت الرواية

تدعونى من جديد بقوة دفعها الداخلية التلقائية لما كان وما سيظل دائماً موضوعى الروائى؛ موضوع شخص يفرض على نفسه بكامل إرادته قاعدة صعبة ويتتبعها بالرغم من كل العواقب ، لأنه دون هذه القاعدة لن يحقق ذاته لا من أجل نفسه أو الآخرين.

يتكرر هذا الموضوع نفسه فى قصة أخرى هى "البارون طالع الشجرة"، والتى كتبتها بعد ذلك ببضعة أعوام فى ١٩٥٦ - ,١٩٥٧ وهنا أيضاً فإن تاريخ تأليف الرواية يوضح الحالة النفسية. فنحن فى حقبة إعادة التفكير فى الدور الذى يمكن أن نقوم به فى الحركة التاريخية، بينما تتعاقب آمال جديدة، ومرارات جديدة. ورغماً عن كل شىء فإن الزمن يمضى نحو الأفضل؛ إلا أن الأمر يتعلق باكتشاف العلاقة الصحيحة بين الضمير الفردى ومسار التاريخ.

وهنا أيضاً كان لدى منذ فترة طويلة صورة ما فى ذهنى؛ صبى يطلع فوق شجرة، يطلع، وماذا يحدث له؟ يدخل عالماً آخر؛ لا: يصعد ويتقابل مع شخصيات عجيبة؛ بل يصعد ويسافر من شجرة إلى أخرى لأيام عديدة، بل لا يعود مطلقاً إلى الأرض، يرفض النزول إلى الأرض ويعيش فوق الأشجار طوال حياته. هل كان علىّ أن أجعل منها قصة هروب من العلاقات الإنسانية، أم من المجتمع أم من السياسة..... إلخ؟ لا، كانت ستكون واضحة جداً

وتافهة؛ تعجبنى اللعبة، فقط إذا لم أجعل من هذه الشخصية -التى ترفض السير على الأرض مثل الجميع- شخصية انطوائية وإنما إنسان يكرس نفسه لعمل الخير لقريبه، مندمجاً فى حركة زمانه، ويريد أن يشارك فى كل ملامح الحياة العملية؛ بدءاً من التقدم التكنولوجى مروراً بالإدارة المحلية، وحتى حياة الرفاهية. لكن كل هذا وهو يعرف أنه لكى يستطيع الحياة بالفعل مع الآخرين فإن الطريق الوحيد هو أن يكون منفصلاً عنهم، وأن يفرض بصرامة على نفسه وعلى الآخرين فى كل لحظة من لحظات حياته تلك الفردية والوحدة المزعجة ، تماماً كما هو الحال مع نزعة الشاعر والمكتشف والثائر.

على سبيل المثال فقد كان الحدث المتعلق بالإسبان أحد الأحداث القليلة الواضحة فى ذهنى منذ البداية، ذلك التضاد بين من وجد نفسه فوق الأشجار لأسباب طارئة وبانتهاء تلك الأسباب يعود إلى الأرض ولكن "طالع الشجرة" يبقى على الأشجار استجابة لدعوة داخلية حتى عندما لا يكون هناك أى سبب خارجى يدعوه للاستمرار فى ذلك.

إن الإنسان الكامل، الذى لم أقدمه بوضوح فى **الفسكونت المشطور**، تماثل مع **البارون طالع الشجرة** مع ذلك الذى يحقق اكتماله بخضوعه بمحض إرادته لنظام شاق وصارم. وكان يحدث شىء غريب بالنسبة لى مع هذه الشخصية، كنت آخذه مأخذ الجد

وأصدقه وأتوحد معه. فضلاً عن ذلك فإننى أثناء بحثى عن عصر ماض أجد فيه بلداً ما مغطى بالأشجار وقعت فى سحر القرن الثامن عشر وتحديداً فى فترة التحول بين ذلك القرن والقرن التالي له. فها هو البطل البارون كوزيمو دى روندو يخرج من الإطار الساخر للحدث ويتجسد أمامى فى لوحة أخلاقية بدلالات ثقافية محددة؛ وصارت أبحاث أصدقائى المؤرخين عن التنويريين واليعاقبة الإيطاليين دافعاً قيماً للخيال، والشخصية النسائية أيضاً (فيولا) دخلت فى لعبة الرؤى الأخلاقية والثقافية، وذلك بالتضاد مع الحسم التنويرى ومع الدفعة الباروكية ثم الرومانسية تجاه كل شىء والتى تخاطر دائماً بأن تكون دفعة مدمرة وجرياً تجاه العدم.

ولذلك كان "البارون طالع الشجرة" مختلفاً تمام الاختلاف عن الفسكونت المشطور، فبدلاً من قصة خارج الزمن تلتزم بالسيناريو، الذى ذكرته للتو وبالشخصيات الرمزية المركبة تركيباً دقيقاً ومن الحبكة الروائية لقصص تحكى للأطفال، كنت أجد نفسى منجذباً باستمرار فى كتابتى لأن أصنع "مزيجاً" تاريخياً وذخيرة من الصور المرتبطة بالقرن الثامن عشر، مدعمة بتواريخ و أحداث مرتبطة بشخصيات مهمة؛ بمناظر طبيعية، وطبيعة نابعة من الخيال بالتأكيد ولكنها موصوفة بدقة وحنين للماضى، لأصنع حدثاً يهتم بأن يجعل خيال البداية

قابلاً للتبرير بل حقيقة؛ أى أن الأمر انتهى بأننى كنت "أستمتع بالرواية" بالمعنى التقليدى جداً للكلمة.

ليس هناك الكثير يمكن أن نقوله عن الشخصيات الثانوية، والتى تمخض عنها جو الرواية، ولكن الصفة التى تجمعها هى أنها جميعاً شخصيات منعزلة، فكل منها منعزل بطريقة خاطئة مقارنة بالطريقة الوحيدة الصحيحة الخاصة بالبطل. أنظر إلى شخصية الفارس المحامى، والتى نجد فيها تكراراً لملامح الدكتور تريلاونى، فالقرن الثامن عشر- قرن غريب الأطوار - يبدو وكأنه وضع خصيصاً ليشكل هذا المعرض الذى يضم الأنماط الغريبة، ولكن هل يمكن إذًا أن ننظر لكوزيمو على أنه شخص غريب الأطوار يحاول أن يبحث عن معنى كونى لغرابته؟ إذا كان الأمر كذلك فإن البارون لن يستطيع أن يعرض المشكلة التى طرحتها على نفسى.

فالواضح أننا اليوم نعيش فى عالم يرفض الشخصيات الاستثنائية، عالم يحرم فيه المرء من أبسط خصوصيات الشخصية الفردية، حتى أصبح الجميع مجرد نسق من السلوكيات المحددة سلفاً. فالمشكلة اليوم لم تعد مجرد فقدان المرء لجزء من ذاته، ولكنها مشكلة الفقدان التام، مشكلة عدم كون الإنسان ذاته على الإطلاق.

وانطلاقاً من الشخص البدائى الذى يمكن وصفه بأنه مازال غير موجود لأنه لم يختلف عن

المادة العضوية وذلك لأنه مازال متحداً مع الكون، وصلنا رويداً رويداً إلى الشخص الاصطناعى الذى نظراً لكونه متحداً مع المنتجات والمواقف فهو أيضاً غير موجود لأنه لا يتناقض مع أى شىء ولا علاقة له بأى شىء مما يحيط به من طبيعة أو تاريخ؛ علاقة تبدأ بالصراع ومن خلاله تصل للتناغم فهو "يؤدى دوره" بطريقة مجردة.

هذه العقدة من التأملات بدأت تتجسد رويداً رويداً أمامى بصورة كانت تشغل ذهنى منذ فترة، بدلة محارب تسير ولا شىء بداخلها. حاولت عام ١٩٥٩ أن أكتب قصة حول ذلك فجاءت رواية "فارس بلا وجود" ، وهى أول رواية تظهر فى الثلاثية ـ على اعتبار الأسبقية الزمنية لفرسان كارلومانيو، وأيضاً لأنها من الأجدر أن تكون مقدمة للروايتين الأخريين عن أن تكون خاتمة لهما. هذا بالإضافة إلى أننى ألّفتها فى حقبة كانت الرؤى التاريخية فيها أكثر اهتزازاً من سنة ٥١ أو ٥٧، وبها اجتهاد أكبر فى التساؤلات الفلسفية التى تؤدى فى الوقت نفسه إلى الانهماك فى الغنائية بشكل أكبر.

استمد المحارب غير الموجود اجيلولفو ملامحه النفسية من نمط إنسانى منتشر فى كل البيئات الموجودة فى مجتمعنا؛ ظهر لى عملى مع هذه الشخصية على الفور غاية فى السهولة. فمن تركيبة اجيلولفو (العدم المسلح بالإرادة والوعى) استخلصت،

ولكن بخطوات مضادة للمنطق (أى أننى انطلقت من الفكرة لأصل إلى الصورة، وليس بالعكس كما أفعل عادة)، تركيبة الوجود المحروم من الوعى أو الأفضل أن نقول المحروم من التماثل العام مع العالم الموضوعى، ورسمت شخصية حامل الترس جوردولو. لم تنجح هذه الشخصية فى أن يكون لها الاستقلالية النفسية للشخصية الأولى، وهذا أمر مفهوم، نظراً لأن الأنماط الأصلية لاجيلولفو يمكن أن نقابلها فى كل مكان بينما النماذج الأصلية لشخصية جوردولو لا يمكن مقابلتها سوى فى كتب علماء السلالات البشرية.

هاتان الشخصيتان، إحداهما محرومة من خصوصيتها الجسدية والأخرى من خصوصية الوعى، لا يمكنهما تطوير أية قصة؛ فهما بكل بساطة ليسا سوى إعلان للموضوع والذى يجب أن يتم من خلال شخصيات أخرى يتصارع فيها الوجود الذاتى مع عدم الوجود بداخل الشخص نفسه، والشاب هو الذى لا يعلم بعد إذا كان موجوداً أو غير موجود؛ إذاً البطل الحقيقى لهذه القصة يجب أن يكون شاباً. يبحث رامبالدو، وهو فارس على نمط فرسان ستاندال، عن أدلة وجوده، مثلما يفعل الشباب، إن تأكيد هذا الوجود يكمن فى الفعل ؛ وسيكون رامبالدو هو رمز العمل والخبرة والتاريخ، ولكننى احتجت لشاب آخر، توريزموندو وجعلت منه رمزاً للمطلق، لذلك فإن

تحقيق وجوده يجب أن ينبع من شىء آخر بعيد عن ذاته، مما كان قبله، من الكل الذى انفصل عنه.

وبما أن المرأة هى الكائن الوحيد المؤكد بالنسبة لأى شاب، فقد وضعت امرأتين؛ الأولى برادامنتى، والتى ترى الحب مواجهة وحرباً، وهى المرأة التى يحبها رامبالدو؛ والثانية سوفرينا التى أشرت إليها إشارة عابرة والحب عندها هو السلام، والحنين لثبات ما قبل المولد (وهى حبيبة توريزموندو). إن برادامنتى والتى ترى الحب حرباً تبحث عن شخص مختلف عنها، إذاً فهى تبحث عن اللاوجود، لذلك فهى تحب اجيلولفو، ولكن بقى لى أن أرمز للوجود كتجربة صوفية للذوبان فى الكل _مثل فاجنر، وبوذية الساموراى- وبالتالى ظهرت شخصيات فرسان الجرال رمزاً لهذا الوجود الصوفى، و أن أرمز من ناحية أخرى للوجود _ كتجربة تاريخية _ لوعى شعب بقى حتى ذلك الوقت على هامش التاريخ (وهو المفهوم الذى عبّر عنه كارلو ليفى أكثر من مرة) ووضعت فى مقابل فرسان الجرال شعب كورفالدى، ذلك الشعب البائس والمقهور قهراً جعله لا يعرف _مجرد المعرفة- بأنه موجود فى العالم، ولكنه سيتعلم هذا عن طريق النضال.

والآن أصبحت لدى كل العناصر التى بحثت عنها؛ كان يكفى أن يحركها ذلك القدر من القلق الوجودى الذى تحمله بداخلها؛ولكن فى هذه المرة ما كنت

لأترك نفسى تغوص فى الأحداث كما فى البارون طالع الشجرة، أى أن الأمر لن ينتهى بى بأن أصدق ما أقصه. فالقص هنا كان يجب أن يهدف لما يطلق عليه "المتعة". صيغة "المتعة" تلك كنت أفهمها دائماً على أن القارئ هو من يجب أن يشعر بالمتعة، وهذا لا يعنى متعة للكاتب الذى يجب أن يقص كل شىء وهو منفصل عما يقصه، فتتوالى تشكيلاته التى يصوغها على البارد مع تلك التى يصوغها على الساخن، تتوالى بين التحكم فى الذات والتلقائية، و هذه فى واقع الأمر أكثر طرق الكتابة إرهاقاً وضغطاً عصبياً.

وعندئذ فكرت فى أن أعزل جهدى فى الكتابة صانعاً منه شخصية: فابتدعت شخصية الراهبة الكاتبة، وكأنها هى التى تقص الرواية، وقد ساعد هذا على منحى دفعات أكثر استرخاء وتلقائية وساعد فى استكمال كل شىء.

وكما رأيتم فى القصص الثلاثة كنت بحاجة لشخصية تقول "أنا"، ربما لتصلح من البرودة الموضوعية المتعلقة برواية القصص الخرافية عن طريق ذلك العنصر المقرب والذاتى، الذى لا تستطيع الرواية الحديثة الاستغناء عنه. ولذلك اخترت فى كل مرة شخصية هامشية ليس لها وظيفة فى حبكة الرواية. ففى الفسكونت المشطور كان "أنا" الراوى صبياً، على نمط كارلينو دى فراتا، لأنه فى تلك الحالات ما من وسيلة أدق سوى رؤية كل شىء من

خلال عينى طفل. وفى البارون طالع الشجرة كانت لدى مشكلة تصحيح اندفاعى القوى وتماثلى مع البطل، فاستعنت بطريقة العرض المشهورة بسيرينوس تسايتبلوم Serenus Zeitblom؛ أى أننى منذ بداية الأحداث وضعت فى المقدمة شخصية على النقيض من كوزيمو، أخ متزن/ رصين. وفى الفارس غير الموجود استخدمت "راوياً" من خارج الرواية تماماً فابتدعت شخصية راهبة لمجرد أن تكون لدى لعبة تضاد إضافية.

إن وجود "أنا" الراوى- المعلّق كانت تجعل جزءاً من انتباهى ينتقل من الحدث إلى عملية الكتابة ذاتها، إلى العلاقة بين تركيبة الحياة وبين الورقة التى أعرض عليها تلك التركيبة على شكل علامات هجائية. وفى وقت ما،كانت هذه العلاقة هى الوحيدة التى تثير اهتمامى ، وأصبحت قصتى هى فقط قصة ريشة الأوزة التى تمسكها الراهبة وتجرى بها على الورقة البيضاء.

وقد أدركت أثناء الكتابة، أن كل شخصيات الرواية تتشابه،إذ يحركها جميعاً نفس القلق والاضطراب، وهكذا كان حال الراهبة وريشة الأوزة، وقلمى وأنا أيضاً. جميعنا كنا الشخصية نفسها، الشىء نفسه، القلق نفسه، والبحث الساخط نفسه. وكما يحدث للروائى ـ وأعتقد أن هذا يحدث لأى شخص يفعل أى

شىء ـ فإن كل شىء يفكر فيه يتحول إلى ما يفعله أى إلى روايته، وترجمت هذه الفكرة بأن غيرت اتجاه الرواية تغييرًا جديداً. أى أننى جعلت من الراهبة الراوية ومن المحاربة برادامنتى شخصية واحدة، كان هذا هو التحول المفاجئ الذى خطر بذهنى فى اللحظة الأخيرة، وأعتقد أنه لا يعنى أكثر مما ذكرته لكم الآن. ولكن إذا أردتم الاعتقاد أن هذا يعنى أن الذكاء الجوانى والحيوية الانبساطية يجب أن يجتمعا فى شخص واحد فلكم الحرية فى اعتقاد ما تريدون.

ولكم الحرية أيضاً فى تأويل تلك القصص الثلاثة كما تريدون، ولا يجب أن تتقيدوا مطلقاً بما ذكرته عن أصول كتابتها. لقد أردت أن أجعل منها ثلاثية خبرات حول كيفية تحقيق الذات كبشر؛ ففى "فارس بلا وجود" نجد الفوز بالكينونة، وفى "الفسكونت المشطور" التطلع للكمال بعيداً عن التمزقات التى يفرضها علينا المجتمع، وفى "البارون طالع الشجرة" الاتجاه إلى كمال غير فردى يمكن الوصول إليه من خلال الإيمان بتقرير المصير الذاتى للفرد؛ وهى ثلاث درجات لتفهّم الحرية. وفى نفس الوقت أردت أن تكون ثلاث قصص نهايتها مفتوحة ـ كما يقولون- وأن تكون قائمة بذاتها كقصص ـ حسب منطقية توالى صدورها ــ ولكنها تبدأ وجودها الحقيقى من خلال لعبة التساؤلات التى تثيرها فى نفس القارئ والإجابة عليها. أريد أن يُنظر إليها وكأنها شجرة لعائلة أسلاف الإنسان المعاصر، والتى يكشف كل

وجه فيها عن بعض ملامح الشخصيات المحيطة بنا، عن بعض ملامحكم، وعن بعض ملامحى أنا شخصياً.

إيتالو كالڤينو

يونيه ١٩٦٠

Il Visconte dimezzato

di

Italo Calvino

إيتالو كالڤينو
الفسكونت المشطور

ترجمة: أمانى فوزى حبشى
مراجعة: أ. د. محب سعد

(١)

كانت الحرب تدور رحاها ضد الأتراك. وكان خالى الفسكونت مداردو دى تيرالبا يمتطى جواده عبر سهل بوهيميا متجهاً إلى معسكر المسيحيين يتبعه حامل الدرع واسمه كورتسيو، كانت طيور اللقلق تحلق على ارتفاع منخفض فى أسراب بيضاء وهى تشق السماء القاتمة وهواءها الساكن.

سأل مداردو كورتسيو قائلا : ما كل هذه اللقالق ؟ وإلى أين تتجه؟

كان خالى وافدًا جديدًا، فقد تطّوع تواً إرضاءً لبعض الدوقات من جيراننا المشاركين فى تلك الحرب. وقد تزود بحصان وحامل درع من آخر قلعة من القلاع التى كانت لاتزال تحت سيطرة المسيحيين، وكان ذاهباً ليقدم نفسه إلى قيادة الجيش الإمبراطورى.

أجابه حامل الدرع بحزن قائلاً: تطير صوب ساحة المعركة، ستصطحبنا طوال الطريق، كان الفسكونت مداردو قد سمع أن تحليق طائر اللقلق يبشر بالحظ السعيد فى تلك البلاد، وأراد أن يظهر فرحته برؤيتها ولكنه كان يشعر رغماً عنه بالقلق.

فسأل: ما الذى يجعل طيور المستنقعات تتجه إلى ساحة المعركة يا كورتسيو؟

أجابه حامل الدرع قائلاً: لقد أخذت هذه الطيور أيضاً تأكل لحوم البشر منذ أن أحرقت المجاعة الحقول، وتسبب الجفاف فى نضوب الأنهار. وحيثما توجد الجثث اتخذت طيور اللقلق والنعام والبجع مكان الغربان والنسور.

كان خالى فى ذلك الوقت فى مقتبل الشباب؛ وهى مرحلة تتسم فيها المشاعر بالاندفاع والاضطراب فهى لم تتحدد بعد إن خيراً أم شراً، و هى مرحلة تتسم كل تجربة جديدة فيها، وإن كانت كئيبة وغير إنسانية، بالقلق ودفء الحياة وحبها .

كان وجهه شاحباً ولكن عينيه كانتا تلمعان وهو يسأل قائلاً:- لكن أين ذهبت الغربان؟ والنسور؟ والطيور الجارحة الأخرى؟

كان حامل الترس جندياً أسمر اللون ذا شارب، ولم يكن يرفع ناظريه أبداً. رد قائلاً: لقد قضى الطاعون عليها هى أيضاً بسبب قيامها بنهش الموتى المصابين بالطاعون ، وأشار بسهمه تجاه بعض

الأعشاب السوداء، التى يتضح بعد نظرة فاحصة أنها ليست أعشاباً بل ريش وأرجل طيور جارحة تيبست.

استطرد كورتسيو: وهكذا لا يمكن معرفة من مات أولاً: الطائر أم الإنسان؟ ومن الذى هجم على الآخر ليفترسه .

هرباً من الطاعون الذى كان يقضئ على الناس سارت عائلات بأكملها إلى الريف، وهناك حصدها الموت حصداً.

وسط أكوام من الهياكل العظمية، المتناثرة فى السهول الجرداء، كانت تظهر أجساد رجال ونساء عارية ومتورمة من آثار الطاعون، بل وكان هناك ما لم يكن له تفسير فى البداية وهو أنها كانت مغطاة بالريش، وكأن ريشاً أسود وأجنحة قد نمت فى أذرعها الرفيعة وأجنابها، ولكنها كانت فى الواقع جيف الطيور الجارحة ممتزجة بأشلائهم.

كانت الأراضى تمتلئ بآثار معارك وقعت، وبدأت خطى الجوادين فى الإبطاء بسبب تعثرهما فى السير وجموحهما.

سأل مداردو حامل الترس قائلاً: ماذا يحدث لجوادينا؟

فأجابه: يا سيدى، لا شىء يثير اشمئزاز الحصان أكثر من نَتَن أمعائه.

كانت أراضى السهل الذى يعبرانه مليئة بِجيَف

خيول بعضها منبطح على ظهره وأطرافه متجهة للسماء والبعض الآخر منبطح على وجهه وفوه مدفون فى التراب.

سأل مداردو قائلاً: ما سبب سقوط الكثير من الخيل فى هذه المنطقة بالذات؟

ففسر كورتسيو الأمر قائلاً: عندما يشعر الحصان بالإصابة فى بطنه يحاول أن يمنع أمعاءه من التدلى، فتلجأ بعض الجياد إلى لصق بطنها بالأرض... وتلجأ أخرى... إلى الاستلقاء على ظهورها لمنعها من التدلى. وعلى الرغم من ذلك لا يتوانى الموت عن حصدها.

- إذاً فالجياد هى أكثر ضحايا هذه الحرب؟

- يبدو أن سيوف الأتراك العريضة قد صُنِعَت خصيصاً لتشق بطونها بضربة واحدة، ولسوف ترى هنالك جثث الرجال، فالمنية تحصد الجياد أولاً ثم الفرسان... واستطرد قائلاً: ها هو المعسكر هناك.

وعند أطراف الأفق لاحت أعالى أكثر الخيام ارتفاعاً وأعلام الجيش الإمبراطورى والدخان. وأثناء تقدمهما راكضَين رأيا أن جثث الذين سقطوا فى المعركة الأخيرة قد تم نقلها ومواراتها التراب، كانت تظهر فقط بعض الأطراف وخاصة الأصابع وقد وضعت فوق الأكوام.

قال خالى مداردو: من حين لآخر يرشدنا أحد الأصابع إلى الطريق، ما معنى هذا؟

- سامحهم الله ، الأحياء يقطعون أصابع الموتى لانتزاع خواتمهم.

- مَن هناك؟ قالها حارس يرتدى معطفاً مغطى بالعفونة ونواقع المسك كلحاء شجرة فى مهب الريح.

هتف كورتسيو قائلاً: يحيا التاج الإمبراطورى المقدس.

فرد الحارس: وليمُت السلطان، ولكنى أتوسل إليكما أن تسألاهم عندما تصلان إلى مركز القيادة متى سيقررون إرسال البديل، فساقاى كادتا أن تصيرا جذوراً ضاربة فى الأرض.

أخذ الجوادان يجريان هرباً من سحابة الذباب التى كانت تحيط بالمعسكر وتطن فوق جبال من الفضلات.

قال كورتسيو راسمًا علامة الصليب: إنها أجساد أبطال، ففضلات الأمس ما زالت ملقاة أرضاً، ولكنهم الآن فى السماء.

وعند مدخل المعسكر، مرا بجانب صف من أعمدة الأروقة تقبع أسفلها نساء بدينات ذوات شعر مجعد، يرتدين أردية طويلة من البروكار وهن عاريات الصدور، استقبلنهما بالصيحات والضحكات البذيئة.

قال كورتسيو:- إنها أروقة العاهرات، لا يوجد جيش لديه من هن على هذا القدر من الجمال.

وظل خالى يركض ووجهه ملتفت إلى الخلف ينظر إليهن.

أضاف حامل الترس:- احترس يا سيدى! إنهن قذرات ومصابات بالطاعون لدرجة أن الأتراك لا يريدونهن ولا حتى كسبايا حرب، فلسن مليئات بالقمل والبراغيث والبق فحسب ولكن فوقهن تصنع العقارب والسحالى جحورها.

ثم مرا بعد ذلك أمام وحدات مدفعية الميدان.

فى المساء كان جنود المدفعية يطهون حصتهم من المياه واللفت على برنز المنجنيق والمدافع الملتهب بسبب كثرة إطلاقها أثناء النهار.

وكانت عربات الكارو المليئة بالتراب تصل تباعاً وجنود المدفعية يأخذون فى غربلته.

أخذ كورتسيو يشرح قائلاً: إن البارود على وشك النفاد، لكن أرض المعركة متشبعة به حتى أنه من الممكن أن يستعاد بعضه متى شاء أحد ذلك.

ظهرت بعد ذلك إسطبلات الخيول حيث كان الأطباء البيطريون فى عمل مستمر، والذباب يحيط بهم، فى محاولة لضم جلد ذوات الأربع وذلك بخياطته أو ربطه بأربطة وضمادات من القطران المغلى، بينما الخيول كلها تصهل وترفس حتى الأطباء أنفسهم.

ثم ظهرت بعد ذلك ولمسافة طويلة مخيمات جنود المشاة، كان وقت الغروب، وأمام كل خيمة جلس

الجنود واضعين أرجلهم الحافية فى أوعية خشبية مليئة بالمياه الدافئة، وكعادتهم كانوا فى حالة استعداد لأى إنذار مفاجئ نهاراً أو ليلاً فكانوا حتى فى ساعة الحمام الخاص بأقدامهم يرتدون الخوذات ويمسكون بالحراب فى قبضتهم. أما الضباط فكانوا فى خيام أكثر ارتفاعاً على هيئة أكواخ، وكانوا يضعون المساحيق تحت إبطهم ويُروِّحون بمراوح من الدانتيل.

قال كورتسيو: إنهم لا يفعلون ذلك تشبهاً بالنساء بل يريدون إثبات أنهم يشعرون بالارتياح تماماً فى صرامة الحياة العسكرية.

أما فسكونت تيرالبا فقد دخل على الفور ليَمثُل أمام الإمبراطور. وفى جناحه الملىء بالسجف والغنائم ، كان الإمبراطور يدرس خطط المعارك القادمة على خرائط جغرافية، وكانت الموائد مغطاة بالخرائط المفتوحة والإمبراطور يغرس فيها دبابيس يأخذها من فوق وسادة يقدمها له أحد الماريشلات..

كانت الخرائط مكتظة بالدبابيس إلى حد أنه لم يعد فى الإمكان فهم أى شىء منها، ولقراءة أى شىء كان يجب نزع الدبابيس ووضعها مرة أخرى وبين عملية النزع والوضع، كان الإمبراطور ومعه الماريشلات يضعون الدبابيس بين شفاههم لتكون أيديهم حرة ، فكانوا يتحدثون بأصوات أشبه بالعواء.

وما أن رأى الإمبراطور الشاب الذى ينحنى أمامه حتى أصدر عواء ينم عن التساؤل، وسرعان ما نزع الدبابيس من فمه.. فقدموه إليه قائلين:

- إنه فارس وصل تواً من إيطاليا يا صاحب الجلالة. إنه فسكونت تيرالبا، من إحدى أعرق العائلات فى جنوة.

- ليُعَّين ملازماً على الفور.

دقّ خالى مهمازيه آخذاً وضع الاستعداد بينما قام الإمبراطور بالرد عليه بتحية ملكية فانطوت الخرائط وتدحرجت إلى أسفل.

وعلى الرغم من تعبه فى تلك الليلة، تأخر مداردو فى النوم فقد كان يسير ذهاباً وإياباً بالقرب من خيمته وهو يستمع إلى صوت الحراس وإلى صهيل الخيل وأصوات بعض الجنود الذين يتحدثون أثناء نومهم، كان ينظر إلى نجوم بوهيميا فى السماء، ويفكر فى الرتبة الجديدة التى حصل عليها، وفى معركة الغد وفى الوطن البعيد وفى احتكاكة نباتات الغاب فى جداول المياه، لم يكن فى قلبه حنين أو شك أو خوف، فقد كانت الأشياء بالنسبة له مازالت كاملة لا نقاش فيها كما كان هو أيضاً كاملا، ولو كان فى إمكانه أن يتنبأ بالمصير البشع الذى ينتظره لرآه أيضاً طبيعياً وكاملاً بالرغم من كل ما به من آلام. وكان بصره يمتد ليصل إلى أطراف الأفق الليلى، حيث يوجد معسكر الأعداء، وكان يقف وقد عقد

ذراعيه فيمسك كتفيه بيديه سعيداً بما لديه من ثقة مصحوبة بحقائق بعيدة ومتنوعة، وفرحاً أيضاً بوجوده وسط هذا كله، كان يشعر بدماء تلك الحرب الضروس المتدفقة، التى تسيل فى ألف جدول على الأرض، تصل إليه، فيتركها تلمسه دون أن يشعر بأى حنق أو رحمة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٢)

بدأت المعركة فى تمام العاشرة صباحاً، ومن فوق سرج الحصان أخذ الملازم مداردو يتأمل مدى انتشار القوات المسيحية المتأهبة للهجوم، وأخذ يمد وجهه لرياح بوهيميا التى أخذت تنشر رائحة الحبوب وكأنها منبعثة من جرن مترب.

عندئذ قال له كورتسيو الذى كان بجانبه و هو يحمل علامات رتبة الجاويش : لا يا سيدى، لا تنظر للوراء، وحتى يفسر لهجته الحاسمة التى تحدث بها أضاف بهدوء :

- يقولون إن هذا يجلب سوء الحظ قبل بداية المعركة.

فى الحقيقة كان كورتسيو لايريد أن يصاب الفسكونت بالهلع إذا أدرك وهو ينظر للخلف أن الجيش المسيحى ليس سوى ذلك الصف الواقف وأن

قوة الدعم ليست سوى شرذمة من عساكر المشاة المصابة فى أقدامها.

ولكن خالى كان ينظر بعيداً ، إلى السحابة المقبلة عند الأفق، وأخذ يفكر: "ها هم، تلك السحابة تتبع الأتراك، الأتراك الحقيقيين أما هؤلاء الواقفون بجانبى يمضغون التبغ فهم جنود المسيحية الشجعان وهذا البوق الذى ينطلق الآن ما هو إلا إشارة الهجوم، أول هجوم فى حياتى.. وهذا الانفجار والاهتزاز، وهذه الكرة المغروسة فى الأرض والتى ينظر إليها المحاربون والجياد دون اكتراث هى أول قذيفة عدو أقابلها فى حياتى، ليت ذلك اليوم الذى سأقول فيه : "هذه هى القذيفة الأخيرة" ، لا يأتى أبداً .

أخذ الفسكونت يركض فوق السهل شاهراً سيفه وعيناه تنظران إلى الراية الإمبراطورية التى كانت تختفى وتظهر بين الدخان المتصاعد بينما كانت قذائف المدفعية الصديقة تدور فى السماء فوق رأسه، كانت قذائف العدو تفتح ثغرات فى الجبهة المسيحية و تكون سحباً مباغتة من التراب.

أخذ يفكر: سأرى الأتراك... أخيراً سأرى الأتراك.

لا شىء يسعد الإنسان أكثر من أن يكون له أعداء ثم يرى إن كانوا فى الحقيقة مثلما يتخيلهم.

ورأى الأتراك، كان اثنان منهم قادمين من هناك، تماماً من هناك، كانا يمتطيان جوادين مدُرعين

ويمسكان الدرع الصغير المستدير من الجلد وملابسهما مخططة بأسود وأصفر فى لون الزعفران. ها هو غطاء الرأس والوجه البرنزى اللون والشاربان يشبهان شاربا شخص كانوا يطلقون عليه فى تيرالبا اسم "ميكى التركى". وقد قُتل أحد التركيين أما الآخر فقد قتل أحد المسيحيين وبدأ الأتراك يظهرون بأعداد كبيرة، وكان القتال يدور بالسلاح الأبيض. وما أن رأى الفسكونت اثنين من الأتراك حتى بدا وكأنه قد رآهم جميعا، كانوا هم أيضاً جنوداً وكان كل ما معهم من مهمات الجيش.

وكانت وجوههم عنيدة وصلبة مثل وجوه الفلاحين، وكان يمكن لمداردو بعد أن حقق أمنيته فى رؤية الأتراك أن يعود مرة أخرى إلينا فى تيرالبا قبل أن ينتهى موسم هجرة طائر السمان إلا أنه بقى للقتال، وهكذا كان يجرى متحاشياً ضربات السيوف العريضة إلى أن وجد تركيًا سائر على قدميه فقتله. وعندما أدرك كيفية القتل ذهب ليبحث عن فارس يمتطى جواداً.. وليته ما فعل.. لأن قصار القامة كانوا هم المؤذيين، كانوا يذهبون أسفل الجياد بسيوفهم العريضة ويشقون بطونها.

وفجأة توقف حصان مداردو فاتحا ساقيه. فقال الفسكونت: ماذا تفعل؟ فوصل إليه كورتسيو وأشار إلى أسفل وقال: انظر هناك.

كانت أحشاء الحصان كلها ملقاة أرضاً، ونظر الحيوان المسكين إلى أعلى، إلى سيده ثم خفض رأسه كمن يريد انتزاع أحشائه، ولم تكن هذه إلا محاولة بطولية فقد بعدها الوعى ثم نفق. وأصبح مداردو دى تيراليا دون جواد.

قال له كورتسيو: خذ حصانى يا سيدى الملازم. لكنه لم ينجح فى إيقافه لأنه سقط من فوق سرجه، بعد أن جرحه سهم تركى وجرى حصانه بعيداً.

صرخ الفسكونت وهو يقترب: كورتسيو... من حامل الترس الذى كان ملقيًا فوق الأرض متألماً.

فقال له حامل الترس:

- لا تفكر فىّ يا سيدى، أتمنى فقط أن يكون ما زال هناك خمر "الجرابا" فى المستشفى، لأن لكل جريح صحناً واحداً فقط.

وألقى خالى مداردو بنفسه وسط الحشد، كان مصير القتال غير موثوق فيه. فوسط هذا الارتباك كان يبدو أن المسيحيين هم المنتصرون، وكان من المؤكد أنهم اخترقوا صفوف الأتراك واستولوا على بعض المدافع.

واندفع خالى مع محاربين عظماء آخرين حتى أسفل بطاريات المدفعية الخاصة بالعدو، وكان الأتراك يقومون بتحريكها حتى يكون المسيحيون فى مواجهة النيران.

وكـان اثنـان من جنـود المـدفـعـيـة الأتراك يديران مـدفـعـاً ذا عـجـلات، وكـانـا يبـدوان مـثل رجلى فـضـاء بسبب بطئهمـا ولحيتيهمـا، والمـلابس المدرعة التى كانت تغطيهما حتى أقدامهمـا. قال خالى فى نفسه: الآن أصل إلى هناك وأتولى أمرهمـا، وبكل حـمـاس، وبسـبب قلة خـبـرته، لم يكن يعـرف أن الاقـتـراب من المـدفع يجب أن يكون من الجانب أو من الخلف. قفز أمـام فـوهة المـدفع والسـيف فـى يده وهو يعـتـقـد أنه بذلك يخيف رجلى الفضاء، ولكنهمـا أطلقا طلقة مدفع فى صدره. عندئذ طار مداردو دى تيرالبا فى الهواء.

فى المـسـاء، بعـد أن حلت الهـدنة، كـانت هـنـاك عربتـان تقومـان بجمع أجساد المسيحيين من ميدان المـعـركـة؛ إحداهمـا للجـرحى والأخـرى للموتى. كـان الفرز الأول يتم هنـاك فى ميدان المعركة.

– هذا سآخذه أنا والآخر خذه أنت...

وعندما كان يبدو أنه مازال من المـمكن إنقاذ شىء مـا كـانوا يضعـونه على عـربة الجـرحى، أمـا الأشـلاء فكانت تـوضع فـوق عـربة المـوتى لتـدفن بعـد الصـلاة عليها .

وأما ما كان غير واضح المعالم فكان يترك طعاماً للطـيور الجـارحـة.. وفـى تلك الأيام، ونظـراً للخـسـائر المتزايدة، صدرت أوامر بمحاولة زيادة عدد الجرحى، وهكذا فـقـد تم اعـتـبـار مـا تبـقـى من مـداردو من الجرحى، ووضع بذلك فوق العربة.

أما الفرز الثانى فكان يتم فى المستشفى، فبعد المعارك تشهد مستشفيات الميدان فظائع أقسى من المعركة نفسها، كان هناك صف طويل من النقالات فوق الأرض يرقد عليها هؤلاء المنكوبون، وحولهم كان يتحرك الأطباء بعنف وهم ينتزعون من بعضهم لبعض الملاقيط والمناشير والإبر وأدوات البتر وبكر من الخيط.. و ما دام الموت مؤكداً فإنهم كانوا يصنعون المستحيل لإعادة كل جثة للحياة.. أنشر هنا وخط هناك وأحشو الفتحات، وكانوا يقلبون الأوردة كالقفازات ويعيدونها إلى أماكنها، وبداخلها خيوط أكثر من الدماء ولكنها فى نهاية الأمر مرقعة ومغلقة. وعندما كان يموت أحد المرضى كان كل ما يتبقى منه سليماً ونافعاً يُستخدم فى إصلاح أعضاء شخص آخر.. وهكذا. وكانت الأمعاء هى التى تسبب ارتباكاً شديدًا، فبمجرد أن تنفك كان من الصعب جداً إعادتها إلى مكانها.

وعند رفع الملاءة بدا جسد الفسكونت مشوهاً بشكل فظيع، كان ينقصه ذراع وساق، وليس هذا فقط، ولكن كل ما بين الذراع والقدم من جذع وحوض أيضاً كان قد طار من طلقة المدفع التى أصابته إصابة مباشرة ، ومن الرأس لم يتبق سوى عين وأذن وإحدى الوجنتين ونصف أنف، ونصف فم ونصف ذقن ونصف جبهة، ومن النصف الآخر لرأسه لم يكن هناك سوى بقايا متسلخة. باختصار لم يتبق منه سوى نصفه، الجزء الأيمن، الذى تم الاحتفاظ به

بالكامل دون أى جرح صغير فيما عدا التمزق الرهيب الباقى من انفصال الجزء الأيسر الذى تفتت.

قال الاطباء بسعادة بالغة: يا لها من حالة رائعة.

إن بقى على قيد الحياة فقد يتمكنون من إنقاذه، والتفوا حوله، بينما أخذ الجنود المساكين المصابين فقط بسهم فى أذرعهم يتساقطون موتى بسبب تعفن دمائهم. أخذوا يخيطون ويلصقون ويعجنون: ولا أحد يدرى ماذا كانوا يفعلون، وكانت النتيجة أنه فى اليوم التالى فتح خالى عينه وفمه واتسعت فتحة أنفه وتنفس.. فقد قاوم التكوين الجسدى القوى لأفراد عائلة تيرالبا الموت . وأصبح مداردو الآن حياً مشطوراً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٣)

عندما عاد خالى إلى تيراليا، كنت أبلغ من العمر سبعة أو ثمانية أعوام. كان الوقت ليلاً والجو مظلماً؛ كنا فى شهر أكتوبر، وكانت السماء ملبدة بالغيوم.

أثناء النهار كنا قد جمعنا العنب، ومن بين صفوف الكرم كنا نشاهد اقتراب أشرع أى مركب تحمل العلم الإمبراطورى فى البحر الرمادى. و فى ذلك الوقت كنا كلما لمحنا مركباً نقول:- إنه السيد مداردو. لقد عاد. وليس هذا لأننا كنا فى شوق لعودته، ولكن لمجرد أن يكون لدينا شىء ننتظره.

وفى تلك المرة، خمنا كالمعتاد، و تأكدنا من وصوله فى المساء عندما صرخ شاب يُدعى فيورفيرو كان يعصر العنب فى المعصرة الخشبية قائلاً: آه.. ها هو هناك! كان الجو يميل إلى الظلمة ، وفى نهاية الوادى رأينا صفاً من المشاعل الموقدة وبعد أن عبر

الجسر، استطعنا أن نميز وجود نقالة محمولة على الأيدى، ولم يعد هناك أدنى شك: كان هو الفسكونت العائد من الحرب.

انتشر الخبر فى أرجاء الوادى، واجتمع جمع فى فناء القصر: الأقارب والخدم، جامعو العنب والرعاة والرجال القائمون على الحراسة، لم يغب أحد سوى والد مداردو، الفسكونت المسن أيولفو، جدى، الذى كان قد توقف منذ فترة عن الخروج إلى فناء القصر، فقد تخلى عن لقبه لصالح ابنه الوحيد قبل أن يذهب للحرب وذلك لتعبه مما يجرى حوله فى العالم.

وقد صار حب جدى الأوحد هو حبه للطيور التى كان يربيها فى قفص كبير داخل القصر، حتى أنه أدخل سريره فى هذا القفص وأغلقه على نفسه ولم يكن يخرج منه صباحاً أو مساءً، كانوا يقدمون له وجباته مع علف الطيور من خلال مشربية حديدية فى القفص، وكان أيولفو يقتسم كل شىء مع تلك المخلوقات ويقضى الساعات وهو يربت على ظهر الفازان واليمام فى انتظار عودة ابنه من الحرب.

لم أرَ قط أناساً بهذه الكثرة فى فناء قصرنا، فقد ولى ذلك الوقت الذى سمعت عنه فقط قصصاً عن الحفلات والحروب بين الجيران، ولأول مرة أدركت كيف أن الأسوار والأبراج لم تعد سوى أطلال، وكيف أن الفناء الذى اعتدنا أن نقدم فيه الحشائش للماعز ونملأ المعلف للخنازير، قد أصبح موحلا، وأثناء

الانتظار كان الجميع يتناقشون فى حالة عودة الفسكونت مداردو منذ أن وصلت أخبار جراحه الخطيرة التى أصابه بها الأتراك، ولكن ما من أحد كان يعرف بالتحديد إذا كان قد أصبح مشوه حرب أو عاجزاً أو مجرد مصاب بجراح طفيفة، والآن جعلتنا رؤية تلك النقالة لما هو أسوأ.

ها هى النقالة توضع على الأرض، لتسمح برؤية بريق حدقة عينه وسط الظلال السوداء. همّت المربية العجوز سباستينا للاقتراب منه، ولكن يداً من وسط تلك الظلال فى حركة تشير بالرفض القاطع. ثم تراءى الجسد فوق النقالة وهو يتحرك بزاوية وفى تقلص، وأمام عيوننا وقف مداردو دى تيرالبا على قدمه، مستنداً على عكاز وكان يرتدى عباءة سوداء تغطيه من قمة رأسه حتى الأرض، ومن الجانب الأيمن تميل للخلف فتكشف نصف الوجه ونصف الجسد المستند على العكاز، بينما كان الجانب الأيسر كله مخبأً ومغطيًا فى أطراف ثنايا هذا اللباس الواسع.

أخذ ينظر إلينا ونحن نقف فى دائرة حوله دون أن ينبس أحدنا بكلمة؛ ولكنه ربما لم يكن ينظر إلينا إطلاقاً بعينه المحدقة بل كان يريد أن يبعدنا عنه فحسب. هبت موجة رياح من البحر وأصدر فرع مكسور من قمة شجرة التين أنيناً، وارتفعت عباءة خالى ونفختها الرياح وشدتها كالشراع حتى ليقال

إنها اخترقت جسده. بل أن الجسد لم يكن موجوداً مطلقاً وأن العباءة فارغة وكأنها عباءة شبح.

وبنظرة فاحصة رأينا أن العباءة ملتصقة كأنها مربوطة بسارية علم، وكانت هذه السارية هى كتفه، وذراعه، وأحد جانبيه ، وساقه، كل ما كان منه مستنداً على عكاز: أما الباقى فلم يكن موجوداً..

كانت الماعز تراقب الفسكونت بنظراتها الثاقبة الخالية من أى تعبير وقد استدارت كل منها فى اتجاه مختلف وهى متلاصقة وظهورها تشكل وضعاً غريباً لزاويا قائمة.

أما الخنازير - وهى أكثر حساسية وتأهباً- فقد صرخت وأخذت تفر هاربة وبطونها تتصادم. وعندئذ لم نستطع نحن أيضاً إخفاء شعورنا بالخوف، فصرخت سباستينا المربية وهى ترفع ذراعيها: يا ولدى المسكين!

غضب خالى لأنه ترك لدينا هذا الانطباع، فحرك طرف العكاز فوق الأرض إلى الأمام وبحركة مثل حركة الفرجار أخذ يدفع نفسه ليصل إلى مدخل القصر، وهناك على سلالم المدخل كان يجلس حاملو النقالة وقد عقدوا أقدامهم، وكانوا رجالاً نصف عراة، يرتدون أقراطاً ذهبية وكانت رءوسهم حليقة إلا من ذؤابة خصلة فى الخلف.

فنهضوا وقال أحدهم - ذو ضفيرة فى رأسه- وكان يبدو أنه قائدهم: نحن ننتظر أجرنا يا سيدى.

أجاب مداردو وكأنه يضحك: كم؟

قال الرجل ذو الضفيرة: سيادتكم تعرفون كم يبلغ أجر نقل رجل فوق نقالة...

أخرج خالى كيساً من حزامه وألقاه ليرن عند قدمى الحمال الذى أمسكه وما أن قدر وزنه حتى هتف قائلاً: ولكن هذا أقل بكثير من المبلغ المتفق عليه يا سيدى.

قال مداردو والرياح ترفع أطراف عباءته: النصف...

وعبر من جانبه الحمَّال وأخذ يصعد الدرج وهو يقفز قفزات صغيرة على قدمه الوحيدة، ثم دخل من الباب الكبير المفتوح على مصراعيه، الذى يؤدى إلى داخل القصر، ودفع بخبطات من عصاه المصراعين فانغلقا بقوة، وبعد ذلك أغلق باب الخروج المفتوح واختفى من أمام أعيننا.

ومن الداخل أخذنا نستمع إلى صوت قدمه وعصاه وهما يتحركان فى الممرات تجاه جناح القصر الذى به مقره الخاص، ومن هناك أيضاً سمعنا الأبواب تتغلق وتوصد بعنف.

كان أبوه ينتظره خلف المشربية الحديدية داخل قفص الطيور، ولكن مداردو لم يمر حتى أمامه ليصافحه، بل أغلق على نفسه حجراته وحده، ولم يرغب فى الظهور أو الإجابة حتى على المربية

سيباستينا التى أخذت تقرع الباب مدة طويلة وهى تواسيه.

كانت سيباستينا العجوز سيدة ضخمة ترتدى الملابس السوداء وتغطى رأسها، وكان وجهها متوردًا خاليًا من التجاعيد فيما عدا تلك التى كانت تكاد تخفى عينيها، كانت قد أرضعت كل شباب أسرة تيرالبا الحاليين تقريباً، وذهبت إلى الفراش مع شيوخها ، وأغلقت عيون جميع موتاها.

والآن فإنها أخذت تتحرك ذهاباً وإيابًا إلى مقصورة كل منهما ، ولم تكن تعرف كيف يمكنها مساعدتهما.

وفى اليوم التالى، ولأن مداردو لم يُعط أية إشارة على أنه ما زال حياً، فأننا استأنفنا جمع العنب ولكن دون بهجة. وفى الكرم لم يكن أحد يتحدث إلا عن مصيره ، ليس لأنه كان قريباً من قلوبنا بل لأن الموضوع كان جذاباً وغامضاً، ولم يكن فى القصر سوى المربية سيباستينا تترقب أى ضوضاء بإنصات.

أما أيولفو العجوز، الذى توقع أن يعود ابنه تعيساً ومتوحشاً هكذا،فكان قد درّب طيراً من أقرب طيوره إلى قلبه، طائر الصرد ، ليحلق حتى جناح القصر الذى يسكنه مداردو، والذى كان مهجوراً آنذاك، ليدخل من نافذة حجرته. وفى ذلك الصباح، فتح العجوز الشباك للطائر وراقبه حتى وصل إلى نافذة حجرة ابنه ، وعاد بعد ذلك ليضع العلف لطيور العقق

وللطيور المفردة وهو يقلد أصواتها. وبعد قليل سمع صوت شيء يُلقى على حديد القفص. أطل العجوز إلى الخارج، وعلى طرف القفص رأى طائره مقتولاً، فضمه بين يديه: كان أحد جناحيه مقطوعاً وكأن أحداً حاول أن ينتزعه، وكانت إحدى ساقيه مقطوعة بفعل ضغط إصبعين عليها، وكانت إحدى عينيه مفقوءة. فضم العجوز الطائر إلى صدره وأخذ يبكى.

وفى اليوم ذاته رقد فى فراشه، ورأى الخدم من وراء المشربية أنه كان فى حالة سيئة، ولكن أحداً لم يكن يستطيع أن يعالجه لأنه كان قد أغلق على نفسه وخبأ المفاتيح، أخذت الطيور ترفرف حول فراشه. ومنذ أن رقد أخذت ترفرف جميعاً ولم ترد أن تتوقف أو تكف عن الضرب بأجنحتها.

وفى صباح اليوم التالى رأت المربية عندما دخلت إلى القفص أن الفسكونت أيولفو قد فارق الحياة. وكانت الطيور كلها واقفة فوق فراشه، وكأنها فوق جذع شجرة وسط مياه البحر.

(٤)

بعد وفاة والده، بدأ مداردو يخرج من القصر. وكانت سيباستينا المربية هى أيضاً أول من أدرك هذا، ففى صباح أحد الأيام وجدت الأبواب مفتوحة على مصراعيها والحجرات خالية. فخرج فريق من الخدم للحقول لتقفى آثار الفسكونت.

أخذ الخدم يجرون بحثاً عنه ومرّوا أسفل شجرة كمثرى كانوا قد رأوها فى المساء مليئة بفاكهة لم تنضج بعد.

قال أحدهم: انظر إلى أعلى !

فرأوا ثمار الكمثرى تتدلى وخلفها سماء الفجر وامتلأوا رعباً ، ذلك لأنها لم تكن كاملة، كان هناك العديد من الثمار مشطورة طولياً، وما زالت كل واحدة تتدلى من ساقها. وَتَبّقى من كل ثمرة الجزء الأيمن فقط (أو الأيسر حسب موقع الناظر، ولكنها

جميعاً كانت من نفس الجانب) أما الجزء الثانى فقد اختفى: قُطع أو ربما قُضم.

قال الخدم: لقد مرّ الفسكونت من هنا. فمن المؤكد أنه بعد أن أغلق على نفسه ولم يذق الطعام أياماً شعر بالجوع هذه الليلة وتسلق أول شجرة قابلته وأكل ثمارها.

و أثناء سيرهم رأى الخدم نصف ضفدعة فوق أحد الأحجار تقفز حية وذلك للخاصية التى تتميز بها الضفادع.

واستمر الخدم قائلين: نحن فى الطريق الصحيح.

ثم فقدوا الأثر، لأنهم لم يروا بين الأوراق أنصاف شمام فعادوا للوراء حتى عثروا عليها.

وهكذا مضوا من الحقول إلى الغابة. وفى الطريق رأوا نبات عيش الغراب مقسوماً نصفين، فطر بوليطس كمأة، ثم بوليطس آخر أحمر سام، وكلما تقدموا فى المسير كانوا يجدون عيش الغراب يظهر من الأرض بنصف ساق ويفتح فقط نصف مظلة. وكانت النباتات تبدو أنها مشطورة بضربة قاسمة وأما النصف الآخر فلا أثر له.. حتى ولو بذره. كانت هناكَ أنواع كثيرة من عيش الغراب: فقع الذئب، فقع صالح للأكل، تماريقوينات، وكان عدد السام منها يساوى تقريباً عدد غير السام.

تتبع الخدم هذا الأثر المبعثر حتى وصلوا إلى مرج يطلق عليه اسم (مرج الراهبات) حيث كانت

توجد بركة آسنة وسط الحشائش. كان الوقت سَحَراً، وعلى حافة البركة كانت هيئة مداردو الهزيلة المغطاة بالعباءة السوداء تنعكس على وجه المياه حيث كانت تطفو نباتات عيش غراب بيضاء وصفراء ورمادية اللون.

وكانت كمية عيش الغراب التى تطفو هى نصف ما جمعه، وبدا عيش الغراب كاملاً وهو مبعثر فوق سطح المياه الشفافة، والفسكونت يتأمله. واختبأ الخدم على الضفة الأخرى من البركة ولم يجرءوا على التفوه بكلمة وهم ينظرون لعيش الغراب الذى يطفو حتى أدركوا أنه لم يكن سوى عيش الغراب الصالح للأكل... ولكن أين عيش الغراب السام؟

إذا لم يكن قد ألقاه فى البركة فماذا فعل به يا ترى؟ أخذ الخدم يجرون عائدين إلى الغابة ولكنهم لم يذهبوا بعيداً. ففى طريق العودة قابلوا طفلاً صغيراً يحمل سلة وبداخلها أنصاف عيش الغراب السام.

كنت أنا هذا الطفل. فى تلك الليلة كنت ألعب وحدى حول مرج الراهبات أبعث الخوف فى نفسى بأن أبزغ فجأة من بين الأشجار وعند ذلك قابلت خالى وهو يقفز على قدمه فى المرج على ضوء القمر ومعه سلة معلقة فى ذراعه.

صرخت قائلاً: مرحباً يا خالى! وكانت المرة الأولى التى نجحت فى أن أقولها له،

ولكنه لم يكن سعيداً لرؤيتى.

قال لى: إننى أجمع عيش الغراب.

- وهل وجدت شيئاً منه؟

قال خالى: انظر، وجلسنا على ضفة تلك البركة، وأخذ ينتقى عش الغراب فيلقى ببعضه فى الماء ويترك البعض الآخر فى السلة.

قال وهو يعطينى السلة وبها عيش الغراب الذى اختاره هو: خذه واطلب أن يقلوه لك

كنت أود أن أسأله لماذا توجد أنصاف عش غراب فقط فى سلته، ولكننى أدركت أن هذا السؤال غير مهذب، وجريت مبتعداً بعد أن شكرته، وكنت فى طريقى لأطلب قلى النباتات عندما قابلت هذا الفريق من الخدم، وعرفت عندئذ أن كل ما معى من عيش الغراب كان ساماً.

وعندما قصوا ما حدث للمربية سيباستينا قالت: إن الجانب الشرير من مداردو هو الذى عاد، ترى ماذا سيحدث اليوم فى القضية؟

فى ذلك اليوم كانت هناك قضية ضد عصابة من قطاع الطرق قبض عليهم حراس القصر فى اليوم السابق، كان قطاع الطرق هؤلاء أشخاصاً من بلدتنا، ولذلك كان على الفسكونت أن يحكم فى أمرهم.

إنعقدت الجلسة وكان مداردو يجلس معوجاً على كرسى الحكم، وكان يقضم أحد أظافره.

وأتوا إليه بقطاع الطرق مقيدين، وكان رئيس العصابة هو ذلك الشاب المدعو فيورفيرو والذى كان أوّل من رأى النقالة أثناء عصر العنب. ثم جاء رافعو الدعوى، وكانوا مجموعة من الفرسان من توسكانا يعبرون غاباتنا متجهين إلى بروفنسا عندما هجم عليهم فيورفيرو وعصابته وسرقوهم، دافع فيورفيرو عن نفسه قائلاً: إن هؤلاء الفرسان جاءوا للصيد جائر فى أراضينا، وقال إنه أوقفهم وجرّدهم من سلاحهم؛ لأنه كان يعتقد أنهم صيادون جائرون لم يقم الحراس بإيقافهم.

وهنا يجب أن نذكر أن الهجمات من جانب العصابات كانت منتشرة جداً فى تلك الأعوام ولذلك كان القانون رحيماً. ثم أن أراضينا كانت مناسبة لأعمال العصابات هذه، حتى أن بعض أفراد عائلتنا كانوا ينضمون لتلك العصابات خاصة فى الأوقات الصعبة، ولن أتحدث عن الصيد الممنوع فقد كانت أبسط الجرائم التى يمكن تخيلها.

كانت المربية سيباستينا على حق فى مخاوفها؛ فقد حكم مداردو على فيورفيرو وكل عصابته بالموت شنقاً بتهمة السرقة. وبما أن الذين تعرضوا للسرقة كانوا متهمين بالصيد غير المشروع فقد حكم عليهم أيضاً بالشنق. ولمعاقبة الحراس، لأنهم تدخلوا متأخرين، ولم يقوموا بمنع عمليات الصيد غير المشروع أو السرقة حكم عليهم هم أيضاً بالموت شنقاً.

وكان المجموع حوالى عشرين شخصاً، هذا الحكم القاسى سبب الذعر والألم لنا جميعاً، ليس فقط بسبب هؤلاء السادة المحترمين القادمين من توسكانا الذين لم يسبق لأحد أن رآهم من قبل، ولكن أيضاً بسبب قطاع الطرق والحراس الذين كانوا محبوبين من الجميع، وكان على السيد بيتروكيودو صانع السروج و النجار أن يقيم المشنقة: كان عاملاً جاداً وعبقرياً ويقوم بعمله بإتقان. قام وهو جد متألم، لأن اثنين من المتهمين كانا من أقاربه، بعمل مشنقة متفرعة كالشجرة، تصعد أحبالها كلها معاً وذلك عن طريق رافعة واحدة، كانت آلة كبيرة جداً ومصنوعة بعبقرية إلى درجة أنه كان من الممكن شنق عدد أكبر من المحكوم عليهم فى المرة الواحدة، حتى أن الفسكونت انتهز الفرصة ليشنق عشر قطط، بشنق قطة بين كل متهمَين.

واستمرت الجثث المتيبسة وجيف القطط تتدلى لمدة ثلاثة أيام وقبل انقضاء هذه المدة لم يكن فى استطاعة أحد أن ينظر إليها.

ولكننا سرعان ما أدركنا المشهد الخطير الذى توحى به تلك الجثث، و أيضاً اختلف تقديرنا للموقف اختلافاً بيّناً حسب تعدد أحاسيسنا ، حتى أنه كان من المؤلم أن نقرر إنزالها وأن نفكك تلك الآلة الضخمة

(٥)

كانت أسعد الأوقات بالنسبة إلى حينما كنت أتجول فى الغابات مع الطبيب تريلاونى باحثاً عن قواقع حيوانات بحرية تحجرت، كان الطبيب تريلاونى إنجليزياً وصل إلى شواطئنا ممتطياً برميل نبيذ بوردو بعد غرق سفينته، كان قد عمل طبيباً على السفن طوال حياته، وقام برحلات طويلة وخطيرة، ومن بينها تلك الرحلات مع القبطان كوك الشهير، ولكنه لم يرَ أى شىء فى العالم لأنه كان دائماً جالساً فى قاع السفينة مستغرقاً فى لعبة "الورق". وعندما وصل إلى شاطئنا، اعتاد بسرعة على النبيذ المسمى "كنكرونى"، أكثر أنواع النبيذ قوة فى منطقتنا، ولم يكُن يستطيع الاستغناء عنه ، حتى أنه كان يحمل دائماً على كتفه زمزمية مليئة به. بقى تريلاونى فى تيرالبا وأصبح طبيبنا، ولكنه لم يكن يهتم بالمرضى، بل كان يهتم باكتشافاته العلمية التى كانت تجعله دائم

التجوال فى الحقول والغابات نهاراً وليلاً، وكنت أنا معه.

اكتشف فى البداية مرضاً أصيب به صرار الليل: مرض لم يكن يصاب به سوى صرار الليل بنسبة واحد فى الألف، ولم يكن بسبب أى ضرر، ولكن الطبيب تريلاونى كان يريد أن يعثر عليها جميعاً ويجد لها العلاج المناسب. وبعد ذلك اهتم بالعلامات التى تدل على أن أرضنا كانت مغطاة كلها بمياه البحر، ولذلك كنا نذهب حاملين الفخاريات والسليكون والتى كان الطبيب يقول إنها كانت سمكاً فى وقت ما. وفى نهاية الأمر فإن اهتمامه الأكبر كان منصباً على الأنوار التى تنبعث من المقابر، كان يبحث عن طريقة ليمُسِك بها ويحفظها، ولهذا كنا نقضى الليالى متحفزين فى جبانة بلدتنا فى انتظار أن تشتعل تلك الأضواء الغامضة بين القبور فى الأرض وفى الحشائش، وعندئذ كنا نحاول أن نجتذبها نحونا وأن نجعلها تجرى وراءنا لنضعها دون أن تنطفئ فى أوعية كُنّا نجربها من حين لآخر: أكياس، قِنينات، أوعية حفظ النبيذ مليئة بالتبن، تنّورات، مصافى، وكان الطبيب تريلاونى قد اتخذ أحد الأكواخ القريبة من المقابر مسكناً له، وكان هذا الكوخ يوماً ما مسكن الحانوتى حيث كان من المعتاد فى تلك الأزمنة المليئة بالمجاعات والحروب والطاعون أن يخصص رجل لهذه المهنة فقط. وهناك أقام الطبيب معمله ووضع بداخله الأوانى بجميع أشكالها ليضع فيها الأضواء

وشباك مثل شباك صيد الأسماك لصيدها، إلى جانب الأنابيق والأفران، وكان يقوم فى المعمل بفحص كيفية خروج تلك الأضواء الشاحبة من أرض القبور ومن تحلل الأجساد، ولكنه لم يكن ذلك النوع من الرجال الذى يمكنه أن يجلس لمدة طويلة متعمقاً فى دراسته: فكان سرعان ما يتوقف ويخرج، وكنا نذهب معًا بحثاً عن ظواهر طبيعية جديدة..

كنت حراً كالهواء، لأننى لم يكن لدى أبوان ولم أكن أنتمى لطبقة الخدم أو طبقة السادة. كنت قد انضممت لعائلة تيرالبا بعد اعتراف متأخر، ولكننى لم أكن أحمل لقبها ولم يهتم أحد بتربيتى. كانت أمى ابنة الفسكونت أيولفو وأخت مداردو الكبرى ولكنها لطخت شرف العائلة عندما هربت مع صياد جائر للحيوانات صار فيما بعد أبى.

أما أنا فقد وُلِدت فى كوخ الصياد الجائر، فى الأراضى الجرداء أسفل الغابة، وبعدها بقليل قُتِل أبى فى إحدى المشاجرات ، وقضى مرض البلاجرا على حياة أمى التى كانت قد بقيت وحيدة فى ذلك الكوخ البائس. عندئذ ذهبت لأعيش فى القصر بعد أن بعد أن رق قلب جدى أيولفو وتولت تربيتى المربية الكبيرة سيباستينا. أتذكر أن مداردو، عندما كان صبياً، وكان عمرى أنا بضعة أعوام، كان يتركنى أشاركه اللعب كما لو كنا على نفس المستوى، ثم أخذت الهوة تتسع بيننا كلما كبرنا، وبقيت أنا فى

عِداد الخدم. والآن وجدت فى الطبيب تريلاونى رفيقاً لم أجد له مثيلاً من قبل.

كان الطبيب يبلغ الستين من عمره، ولكنه كان فى مثل قامتى تقريباً، وكان وجهه يظهر مجعداً كثمرة الكستناء اليابسة أسفل القبعة المثلثة والشعر المستعار، وكانت ساقاه تبدوان أكثر طولاً وهى موضوعة داخل حذاء الفرسان الذى يصل حتى منتصف فخذه، وكانتا كساقى صرار الليل غير متناسقتين مع جسمه، وكذلك بسبب خطواته الواسعة، وكان يرتدى فراك(*) قمرىّ اللون ذا زركشة حمراء ويضع فوقه حمالة الزمزمية التى تحتوى على نبيذ الكنكرونى.

كان عشقه لأضواء المقابر يدفعنا للسير مسافات طويلة ليلاً لنصل إلى مقابر البلدان القريبة حيث كان يمكننا أن نرى هناك أضواء أجمل لوناً وحجماً من أضواء مقابرنا المهجورة، ولكن تباً لنا إذا اكتشف سكان تلك البلدان تجوالنا هذا ، ففى إحدى المرات اعتقدوا أننا لصوص مقابر فقامت مجموعة من الرجال المسلحين بالمناجل والمذراة بمطاردتنا لعدة أميال.

كنا فى أماكن وعرة و فى مساقط مياه وكنت أنا والطبيب تريلاونى نقفز فوق الصخور، ولكننا كنا نسمع صوت الأهالى المتقدين غضباً وهم يقتربون خلفنا. وفى منطقة يطلق عليها اسم "قفزة جينيا" كان

(*) الفراك بدلة المراسم.

هناك جسر صغير مصنوع من جذوع الأشجار فوق هوة سحيقة، وبدلاً من أن نعبر هذا الجسر اختبأنا أنا والطبيب على صخرة كانت على طرف حافة الهاوية، في الوقت المناسب حيث كان الفلاحون خلفنا تماماً، لم يتمكنوا من رؤيتنا وأخذوا يصرخون: لكن أين ذهب هؤلاء الأشقياء؟ وجروا واحداً تلو الآخر فوق الجسر. بعدها سمعنا صوت دوى هائل وابتلعهم الشلال الذى يصب فى مجرى المياه وهم يصرخون.

أما أنا وتريلاونى فقد تحول الرعب الذى سيطر علينا إلى راحة لنجاتنا من الخطر، ثم تحول مرة أخرى إلى رعب للمصير الفظيع الذى لقيه مطاردونا. جرؤنا بالكاد أن نطل وأن ننظر إلى أسفل فى الظلام حيث اختفى الفلاحون. وعندما رفعنا أعيننا رأينا بقايا الجسر الصغير: كانت الجذوع متماسكة ولكنها كانت منقسمة فى المنتصف وكأنها قد نُشِرَت، ولم يكن لدينا تفسير آخر لتعرض هذا الخشب الضخم لقطع دقيق كهذا..

قال الطبيب تريلاونى: إننى أعرف من ارتكب هذا..وكنت أنا أيضاً قد فهمت ...

وبالفعل وصل إلى أسماعنا صوت حوافر، وعلى حافة الهاوية ظهر جواد يمتطيه فارس مغطى بعباءة سوداء، كان الفارس هو الفسكونت مداردو الذى كان يتأمل، بابتسامة باردة مثلثة الشكل، النتيجة المأساوية الناتجة لفخه... والتى من الجائز أنه لم

يتوقعها: فمن المؤكد أنه أراد قتلنا أنا والطبيب، ولكنه على عكس ما أراد أنقذ حياتنا.

وبملء الرعب رأيناه يجرى مبتعداً فوق حصانه النحيف الذى كان يقفز فوق الصخور وكأنه ابن العنزة.

فى ذلك الوقت كان خالى يتجول دائماً فوق صهوة جواده؛ فقد جعل صانع السروج بيتروكيودو يعد له سرجاً خاصاً يُمَكّنه من أن يؤمن نفسه فوقه بحزام فى أحد جانبيه وبوزن مضاد فى الجانب الآخر، وعلق سيفاً وعكازًا بجانب السرج، وهكذا كان الفسكونت يمتطى حصانه وعلى رأسه قبعة مزينة بالريش عريضة الحواف، يختفى نصفها أسفل جناح العباءة التى ترفرف دائماً.

وحينما كان صوت طرقعة حوافر حصانه يصل إلى الأسماع، كان الجميع يفرون بصورة أسوأ مما يحدث عند عبور جالاتيو المجذوم: فكانوا يبتعدون بأولادهم وحيواناتهم، وكانوا يخشون على زرعهم، لأن شر الفسكونت كان يعم الجميع، وكان يظهر من لحظة لأخرى فى أعمال لايتوقعها أحد ولا تفسير لها .

ولم يمرض قط، فلم يحتج إلى علاج الطبيب تيرلاونى. وفى مثل حالته لم أكن أعرف ما سيكون عليه تصرف الطبيب، فقد كان يفعل المستحيل ليتجنب خالى، وليتجنب مجرد سماع أى حديث عنه. فعندما كان أحد يحدثه عن الفسكونت وعن قسوته،

كان الطبيب تيرلاونى يهز رأسه ويمد شفتيه وهو يتمتم: أوه، أوه، ... تؤ.. تؤ.. تؤ.. تماماً كما كان يفعل عندما يحدثه أحدهم بكلام غير لائق. وليغير الموضوع كان يبدأ رواياته عن رحلات القبطان كوك.. وفى إحدى المرات جربت أن أسأله كيف يستطيع خالى - فى رأيه - أن يعيش مشطوراً هكذا. ولكن الإنجليزى لم يستطعِ أن يقول لى سوى: أوه... أوه... تؤ .. تؤ..

وكان يبدو أن حالة خالى لا تُشَكِّل أى اهتمام لدى الطبيب من وجهة النظر الطبية ، ودفعنى هذا لأن أفكر أنه صار طبيباً بسبب ضغط عائلته فحسب أو لأسباب اجتماعية، وأن هذه الدراسة لا تهمه قط.. وربما كان عمله طبيباً بحرياً يرجع فقط لبراعته فى لعبة الورق، ولذلك فإن أشهر البحَّارة وعلى رأسهم القبطان كوك كانوا يتخذونه رفيقاً للعب.

وذات ليلة كان الطبيب تريلاونى يصطاد أضواء المقابر بشبكته فى جبانتنا القديمة عندما رأى أمامه مداردو دى تيرالبا الذى كان يصحب جواده ليرعى فى المقابر. ارتبك الطبيب وارتعب بشدة، فاقترب منه الفسكونت وسأله بنطقه المعيب جداً الصادر من فمه المشطور:

- هل تبحث عن فراشات ليلية يا دكتور؟

أجابه الطبيب بصوت خفيض: أوه يا سيدى اللورد.. أوه....أوه، أنا لا أبحث عن فراشات، ليس

بالضبط فراشات يا سيدى ...بل عن أضواء المقابر ؟ أضواء المقابر

– نعم، أضواء المقابر، كثيراً ما تساءلت أنا أيضاً عن مصدرها.

أجابه تريلاونى وبصوت أكثر اطمئناناً بسبب تلك النبرة الطيبة: إن هذا بكل تواضع هو موضوع دراساتى منذ فترة يا سيدى...

فقلّص مداردو بابتسامة نصف وجهه المثلث ذى الجلد المشدود كالجمجمة وقال: إنك كدارس تستحق كل مساعدة، وللأسف، فإن هذه الجبانة المهجورة ليست بيئة جيدة لأضواء المقابر، ولكننى أعدك أننى سأحاول مساعدتك فى الغد قدر استطاعتى.

وكان الغد هو اليوم المحدد لإجراء العدالة، وحكم الفسكونت بالموت على حوالى عشرة فلاحين، لأنهم حسب تقديره، لم يقوموا بتسليم الجزء الواجب تسليمه للقصر من المحصول، ودُفِنَت جثث الموتى فى تربة المقابر العامة، وأصبحت الجبانة تطلق كل يوم كنزاً هائلاً من الأضواء، امتلأ الطبيب تريلاونى رعباً من هذه المساعدة ، على الرغم من أنه وجدها مفيدة جداً لدراساته.

أثناء تلك الأحداث المأساوية كان السيد بيتروكيودو قد أتقن فن إقامة المشانق إتقاناً كبيراً؛ فقد أصبحت الآن من روائع أعمال النجارة والميكانيكا، لا المشانق فحسب بل أيضاً الدعامات

والآت الرفع وأدوات التعذيب الأخرى التى كان الفسكونت ميداردو ينتزع بها الاعترافات من المتهمين.

كنت أذهب كثيراً لمتجر بيتروكيودو لأن مشاهدته وهو يعمل بكل مهارة وشغف كانت شيئاً رائعاً، ولكن الألم كان يعتصر دائماً قلب صانع السروج . فما كان يصنعه كان مشانق للأبرياء، وكان يفكر فيقول - ماذا يمكننى أن أفعل حتى أحصل على أوامر بتصنيع آلات عبقرية كهذه ولكن هدفها مختلف؟ وماذا يمكن أن تكون عليه الآليات الجديدة التى يمكننى أن أصنعها بسهولة؟ ولكن نظراً لأن أسئلته كانت تبقى دائماً بلاإجابة، كان يحاول طردها من ذاكرته، منكّباً على صناعة الآلات أكثر جمالاً وعبقرية على قدر استطاعته. وكان يقول لى أنا أيضاً: يجب أن تنسى الهدف التى تُصنع لأجله، اُنظر إلى حركتها الميكانيكية ، ألا ترى كم هى جميلة؟

كنت أنظر لهندسة بناء الدعامات، وحركة هبوط الحبال وصعودها، وعملية الربط بين الآلات الرافعة والبكر، وكنت أحاول بشدة ألا أتخيل الأجساد المتألمة فوقها. ولكننى كلما حاولت ذلك، وجدت نفسى أفكر فيها، وكنت أقول لبيتروكيودو: كيف؟ كيف أفعل هذا؟

فكان يجيب: وكيف أفعل هذا أنا يا ولدى، ماذا أفعل ...؟

وبالرغم من الآلام والمخاوف، كانت لتلك الأوقات جانبها المفرح، كانت أجمل الساعات عندما ترتفع الشمس فى السماء ويصبح البحر من الذهب، ويغنى الدجاج بعد أن يضع البيض، وعلى الطرقات كان يُسمع صوت بوق المجذوم، كان المجذوم يمر كل صباح يستجدى لرفقاء مرضه، كان يُدعى جالاتيو، وكان يعلق فى رقبته بوق صيد، وبصوته كان يعلن عن قدومه من بعيد، وكانت السيدات عندما يسمعن البوق، يضعن على حافة الحائط بيضاً أو قثاء أو طماطم وفى بعض الأحيان أرنباً صغيراً مسلوخاً، ثم يهربن للاختباء مصطحبات أطفالهن؛ لأنه لا يجب أن يبقى أحد فى الطرقات وقت عبور المجذوم. فالجذام مُعد عن بعد بل إن مجرد رؤية المجذوم خطر.

كان جالاتيو يتقدم ببطء على الطريق الخالى يسبقه نفير البوق، وعصاه الطويلة فى يده ويرتدى رداءه الطويل الممزق الذى كان يلمس الأرض، كان شعره طويلاً ملبداً أصفر اللون ، وكان وجهه أبيض مستديراً أتلفه الجذام قليلاً بالفعل...

كان يجمع الهبات ويضعها فى جرابه ويهتف شاكراً تجاه منازل الفلاحين المختبئين يهتف بصوته المعسول، مردداً بعض التلميحات المضحكة أو الخبيثة..

فى ذلك الزمان كان مرض الجذام مرضاً منتشراً فى القرى القريبة من البحر، وكان بالقرب منا قرية

صغيرة تدعى براتوفونجو، يسكنها المجذومون فقط، وكنا نحرص دائماً على أن نرسل لهم العطايا التى كان يجمعها جالاتيو. وعندما كان أحد سكان القرى المطلة على البحر أو الفلاحين يصاب بالجذام كان يترك أسرته وأصدقاءه ويذهب إلى براتوفونجو ليقضى هناك ما تبقى من حياته منتظراً أن يلتهمه المرض، و كنا نسمع أخبار الحفلات الكبيرة عند استقبالهم لوافد جديد: ومن بعيد كان يمكن الاستماع إلى عزف وغناء قادم من منازل الجذامحتى فى وقت متأخر من الليل...

كانت القصص تُحاك عن براتوفونجو، بالرغم من أن أحداً من الأصحاء لم يذهبُ، إلى هناك. ولكن جميع الشائعات كانت تتفق على أن الحياة هناك كانت عبارة عن جلبة مستمرة، وقبل أن تصبح البلدة ملجأً للمجذومين كانت وكراً للعاهرات حيث كان يذهب إلى هناك بحّارة من كل جنس ومن كل دين: ويبدو أن النساء هناك مازلن يحتفظن بالعادات الإباحية لتلك الأوقات... لم يكن مرضى الجذام يعملون فى الحقول، فيما عدا كرم عنب الفراولة والذى كان النبيذ الناتج عنه يجعلهم فى حالة من الانتشاء طوال العام، وكانت المهمة الكبرى التى تشغل مرضى الجذام هى العزف على آلات غريبة من اختراعهم: آلات الهارب معلقة فى أوتارها أجراس كثيرة، والغناء بطبقات صوتية مرتفعة جداً، ورسم البيض بكل لون بفرش الرسم كأنهم فى عيد فصح

مستمر، وهكذا فإنهم بانهماكهم في الموسيقى العذبة - بين أكاليل من الياسمين الموضوعة حول وجوههم المشوهة - كانوا ينسون المجتمع الإنساني الذي انفصلوا عنه بسبب المرض.

لم يرغب أي طبيب من بلدتنا قط أن يهتم بمرضى الجذام. وعندما استقر تريلاوني بيننا، تمنى البعض أن يُكرس علمه لعلاج ذلك المرض المنتشر في منطقتنا.

كنت أنا أيضاً أشاركهم نفس الآمال بطريقتي الطفولية: فمنذ مدة كانت لديّ رغبة كبيرة في أن أندفع حتى أصل إلى براتوفونجو وأحضر حفلات مرضى الجذام، ولو أن الطبيب انكبّ على تجربة عقاقيره على هؤلاء المنكوبين، لسمح لي مرة من المرات باصطحابه إلى داخل البلدة. ولكن، لم يحدث أي شيء من هذا: كان الطبيب تريلاوني يهرب بخطوات سريعة بمجرد سماع بوق جلاتيو، وكان يبدو أنه أكثر الجميع خوفاً من العدوى. في بعض المرات كنت أحاول أن أسأله عن طبيعة ذلك المرض، لكّنه كان يجيب بإجابات ليتهرب بها كما لو كانت كلمة "جذام" وحدها كافية لتسبب له الضيق.

في الحقيقة لا أعلم لماذا كنا متمسكين باعتباره طبيباً: فقد كان مليئاً بالشغف والاهتمام بالحيوانات، وخاصة أصغرها، وبالحجارة، وبالظواهر الطبيعية؛ أما الكائنات البشرية وأمراضها فإنها كانت تملؤه

بشعور الاشمئزاز والفزع، كان يصاب بالرعب من رؤية الدماء، وكان يلمس المرضى بأطراف أصابعه فقط، وأمام الحالات الخطيرة كان يضع منديلاً من الحرير المبلل بالخل فوق فمه، وكان يخجل ويحمر وجهه كالصبية الصغار عندما يرى جسداً عارياً. فإذا كان جسد امرأة، كان يخفض نظره ويبرطم. ويبدو أنه خلال رحلاته الطويلة عبر المحيطات لم يعرف نساءً قط، ولحسن الحظ ففى تلك الفترة كانت عمليات الوضع فى بلادنا تقوم بها الدايات لا الأطباء، وإلا فمن يدرى ماذا كان سيفعل.

وخطرت ببال خالى فكرة إشعال الحرائق. ففى قلب الليل كان يشتعل فجأة مستودع تبن ملك فلاحين بؤساء، أو شجرة جافة أو غابة بأكملها. وفى ذلك الوقت كان انتقال دلو المياه من يد إلى يد لإخماد الحريق يستمر حتى الصباح. وكان الضحايا دائماً هم هؤلاء الفقراء المساكين الذين راجعوا الفسكونت بشأن بعض أوامره التى كانت تزداد ظلمًا وقسوة أو بشأن الضرائب التى ضاعفها. وبما أنه لم يسعد بحرق الممتلكات فقط ، فقد أخذ يحرق المنازل أيضاً: يبدو أنه كان يقترب ليلاً ويلقى بمشاعل محترقة فوق الأَسقف، ثم يهرب بحصانه، ولكنّ أحداً لم ينجح أبدا فى القبض عليه متلبساً. فى إحدى المرات توفى عجوزان ومرة أخرى بقت جمجمة صبى كأنها سلخت. و هكذا كانت كراهية الفلاحين له تتزايد، وكان ألد اعدائه هم العائلات

التى تدين بالهوغونية والذين كانوا يقطنون البيوت الريفية فى تل جيربيدو، هناك كان الرجال يتناوبون الحراسة ليلاً لتجنب الحرائق.

ودون أى سبب مفهوم، ذهب ذات ليلة حتى وصل إلى منازل براتوفونجو وكانت أسقفها من القش وهناك ألقى بالقطران والنيران . ولمرضى الجذام صفة حميدة هى أنهم إذا حُرِقوا لا يشعرون بالألم. وإذا أمسكت النيران بهم وهم نيام فإنهم لن يستيقظوا .، ولكن أثناء قفزه مبتعداً سمع الفسكونت من البلدة عزف آلة الكمان يرتفع: وكان سكان براتوفونجو سهارى منغمسين فى اللعب، وقد أصيبوا جميعًا بحروق ولكنهم لم يشعروا بألم، وأخذوا يستمتعون كعادتهم... و سرعان ما أطفأوا الحريق، وحتى منازلهم - ربما لأنها محقونة هى أيضًا بالجذام- لم تحدث بها سوى خسائر طفيفة بسبب الحريق.

وتحول شر مداردو أيضاً ضد ممتلكاته الخاصة: القصر.

فقد تصاعدت النيران من الجناح الذى يسكن فيه الخدم واشتعل، بين صرخات مَنْ سُجِن بالداخل، بينما شوهد الفسكونت وهو يركض مبتعداً فى الريف... كانت محاولته تهدف أن تودى بحياة مرضعته وأمه البديلة سيباستينا. فبالتسلط الراسخ الذى تتمسك به جميع النساء على أولئك الذين

ربينهم وهم أطفال، لم تتورع سيباستينا أبداً عن لَوم الفسكونت فى كل مرة يرتكب فيها حماقة، حتى عندما كان الجميع مقتنعين أن طبيعته قد تحولت إلى طبيعة قاسية مريضة لا يمكن إصلاحها. تم إخراج سيباستينا وهى حزينة خارج الحوائط المحترقة وكان عليها أن تمكث فى الفراش عدة أيام لتشفى من حروقها..

وفى مساء أحد الأيام، فُتِح باب الغرفة التى كانت ترقد فيها، وظهر الفسكونت بجوار فراشها.

قال لها مداردو وهو يشير إلى الحروق:

- ما هذه البقع الموجودة على وجهك يا مربية؟!

فأجابته فى سلام:

- إنها آثار خطاياك يا بُنَىّ.

- إن جلدك قد أزرق وتغير، ماذا بك يا مربية؟

- إنه ألم طفيف يا بنى، بالنسبة لما ينتظرك فى الجحيم إن لم تتب.

- يجب أن تشفى بسرعة: لا أريد أن يعرف الجميع عن هذا المرض الذى أصابك.

- لست أبحث عن زوج لأهتم بجسدى، ولكن يكفينى ضميرى اليقظ، ليتك تستطيع أن تقول نفس الشىء.

- ومع هذا فإن عريسك ينتظرك ليأخذك معه. ألا تعرفين هذا؟!

- لا تسخر من السن المتقدمة يا بنى، أنت الذى خسرت شبابك.

- أنا لا أسخر، استمعى يا مرضعة، فخطيبك يعزف أسفل النافذة.

فاسترقت سيباستينا السمع فوصل إلى أسماعها صوت بوق المجذوم من خارج القصر.

وفى اليوم التالى أرسل مداردو لاستدعاء الطبيب تريلاونى... وقال له: إن هناك بقعاً مشكوكاً فى أمرها ظهرت على وجه خادمتنا العجوز ولا نعرف كيف، والجميع يخشون أن يكون مرض الجذام. يا دكتور.. إننا نعتمد على نور علمك.

انحنى تريلاونى وهو يبرطم:- هذا واجبى ياسيدى..

ثم استدار وخرج كمن يفلت من القصر، أخذ معه برميلاً صغيراً من نبيذ "الكنكرونى" واختفى فى الغابات، ولم يَرَه أحد بعد ذلك لمدة أسبوع. وعندما عاد كانت المرضعة سيباستينا قد أُرسلت بالفعل لمدينة الجذام.

غادرت سيباستينا القصر فى أحد الأيام وقت الغروب، وهى ترتدى السواد وقد غطت وجهها وحملت على ذراعها صرة وَضَعت فيها حاجياتها.

كانت تعرف أن مصيرها قد تقرر : كان يجب عليها الذهاب إلى براتوفونجو. تركت الحجرة التى وضعوها فيها حتى تلك اللحظة ولم يكن هناك أحد لا فى الردهة ولا فوق الدرج. هبطت الدرج، وعبرت الحديقة وخرجت إلى الحقول: كان كل شىء مهجوراً، كان الجميع يبتعدون ويختبئون أثناء عبورها. سمعت صوت بوق صيد يصدر نداءً مكّوناً من نغمتين فقط: وعن بعد على الدرب كان جالاتيو يقف رافعاً آلته عالياً نحو السماء، سارت المربية بخطوات بطيئة، وكان الدرب يتجه صوب الشمس وقت الغروب، كان جالاتيو يسبقها بمسافة، وكان يتوقف كل فترة كأنه يتأمل الحيات الضخمة وفحيحها بين أوراق الشجر، يرفع بوقه ويبدأ فى عزف حزين، كانت المربية تنظر إلى الحقول والشواطىء التى كانت تهجرها، كانت تشعر بوجود الناس الذين يبتعدون عنها خلف السياج، ثم تعاود سيرها.

ووصلت وحيدة و هى تتبع جالاتيو عن بعد، إلى براتوفونجو، وأغلقت أبواب البلدة خلفها، بينما بدأت نغمات القيثارات والكمان ترتفع.

لقد خذلنى الطبيب تريلاونى بشدة إذ لم يحرك إصبعاً حتى لا يُحُكَم على المربية سيباستينا بالذهاب لمدينة الجذام، بالرغم من أنه كان يعلم أن تلك البقع لم تكن جذاماً، كان هذا دليلاً على الجبن، وشعرت لأول مرة بمناهضتى الطبيب. وبالإضافة إلى هذا، لم

يأخذنى معه عندما هرب إلى الغابات، برغم معرفته مدى فائدتى له فى صيد السناجب والبحث عن توت العليق، الآن لم يعد الذهاب معه للبحث عن أضواء المقابر يعجبنى، وكثيراً ما صرت أتجول وحدى بحثًا عن صحبة جديدة.

والأشخاص الذين كانوا يجذبوننى الآن هم الهوغونيون الذين كانوا يسكنون تل جيربيدو. كانوا هاربين من فرنسا حيث كان الملك يمزق أجساد كل من يتبعون ديانتهم إرباً. وعند عبورهم الجبال، فقد الهوغونيون كتبهم وأدواتهم المقدسة، ولم يعد لديهم الآن كتاب مقدس يقرءونه أو قداس يتلونه، ولا ترانيم ينشدونها أو صلوات يبتهلون بها، وشأنهم شأن كل من عانى الاضطهادات وعاش وسط أناس من ديانة مختلفة، كانوا ممتلئين بالشك إذ لم يرغبوا فى أخذ أى كتاب دينى، أو الاستماع إلى نصائح حول طريقة ممارسة طقوسهم. و إذا جاء أحد لتفقدهم بصفته أخ هوغونى مثلهم ، كانوا يخشون أن يكون مبعوثاً متنكراً للبابا ، فكانوا ينغلقون على أنفسهم بالصمت. وهكذا أخذوا يزرعون أراضى تل جيربيدو الوعرة، وكانوا ينهكون أجسادهم فى العمل رجالاً ونساء من قبل الفجر وحتى الغروب، على أمل أن تنير نعمة الله طريقهم.

ونظراً لقلة معرفتهم فى كل ما هو خطيئة ، كانوا يضاعفون فى الممنوعات حتى لا يخطِئوا. وصاروا

يراقبون الواحد الآخر رقابة صارمة متوجسين من أية حركة صغيرة قد تحمل فى طياتها أية نوايا سيئة.. ولأن ذاكرتهم كانت مضطربة بشأن خلافات كنيستهم، فإنهم كانوا يمتنعون عن ذكر اسم الله أو عن أى تعبير دينى آخر، خوفاً من التحدث بأسلوب فيه تدنيس للمقدسات. وبالتالى لم يتبعوا أية قاعدة طقسية، وربما لم يجرءوا على صياغة أفكارهم حول المسائل الإيمانية، بالرغم من احتفاظهم بهيئة تدل على التأمل وكأنهم دائموا التفكير.

وبمرور الوقت، اكتسب نظام زراعتهم المرهقة قيمة تُعادِل قيمة الوصايا، وكان هذا هو الحال أيضاً بالنسبة لعاداتهم فى التقشف التى أُجبِروا عليها، وبالنسبة لفضائل الأعمال المنزلية للمرأة.

كانوا عبارة عن عائلة كبيرة مليئة بالأحفاد وزوجات الأبناء، جميعهم طوال القامة بارزو المفاصل، يعملون فى الأرض وهم يرتدون دائماً ملابس عيد سوداء أزرارها مشدودة وقبعات ذات حواف عريضة متدلية يرتديها الرجال ، وكوفيات بيضاء ترتديها النساء.

كان للرجال لحى طويلة، ويحملون دائماً على أكتافهم بنادق الصيد وأحزمة الذخيرة، ولكن يقال إن ما من أحد أطلق عياراً، إلا على العصافير ، لأن الوصايا كانت تمنع ذلك.

ومن فوق الدرج الجيرى حيث كانت تنمو بالكاد بعض الكروم وبعض الحنطة الواهنة، كان صوت حزقيال العجوز يرتفع صارخاً دون توقف وقبضتاه مرتفعتان نحو السماء، وهو يرتعش بلحيته البيضاء التى تشبه لحية الماعز، ويدير عينيه أسفل قبعته الإسطوانية المنتفخة قائلاً للأفراد المنكبين على العمل: فليحل بكم الطاعون والمجاعة!

هيا يا يونان أسرع بتلك الفأس!

هيا يا سوزانا انزعى الحشائش!

هيا يا طوبيا انشر هذا السماد!

كان يصدر ألف أمر وألف لوم بنبرة الحاقد الذى يوجه كلامه إلى مجموعة من الكسالى الفاسدين. وفى كل مرة بعد أن يأمر صارخاً بالألف أمر الذى يجب عليهم فعلها، وحتى لا يذهب الحقل إلى التهلكة - كان يقوم بتنفيذها بنفسه طارداً الجميع من حوله وهو يصرخ دائماً:

- فليحل بكم الطاعون والمجاعة...

أما زوجته فلم تكن تصرخ أبداً، وكانت تبدو -بخلاف الآخرين _ مؤمنة بتدين سرى، واثقة منه حتى أدق تفاصيله، ولكنها لم تكن تتحدث عنه مع أحد.

كان يكفيها أن تنظر بدقة بحدقتى عينيها الكبيرتين ، وأن تنطق بشفتيها المشدودتين لكى

تختفى الابتسامات النادرة من على شفاه أفراد العائلة ولتعود التعبيرات جادة وحادة.

- ولكن هل هذا مناسب يا أختى راشيل؟

- وهل يبدو لك أن هذا مناسب يا أخى هارون؟

فى إحدى الأمسيات وصلت إلى تل جيربيدو بينما كان الهوغونيون يؤدون الصلاة، لم يكونوا ينطقون بشىء أو عاقدين أيديهم أو راكعين، كانوا يقفون فى صفوف فى الكرم، الرجال من ناحية والسيدات من ناحية أخرى وفى المقدمة كان يقف حزقيال العجوز ولحيته تتدلى فوق صدره. كانوا ينظرون إلى الأمام، وقد ضموا قبضاتهم التى تتدلى من أذرعهم الطويلة ذات المفاصل البارزة، ورغم أنه كانوا يبدوعليهم الاستغراق فإنهم لم يفقدوا إدراكهم بما كان يدور حولهم، فقد مد طوبيا يده نزع شرنقة من فوق إحدى الكروم، وسحقت راشيل حلزوناً بكعب حذائها، وحتى حزقيال نفسه خلع قبعته ليخيف العصافير التى كانت هبطت على الحنطة .

ثم بدءوا ينشدون مزموراً، لم يتذكروا الكلمات وإنما اللحن فقط، وحتى هذا لم يتذكروه جيداً، فغالباً ما كان أحدهم ينشذ عن اللحن، أو ربما كانوا ينشذون جميعاً بشكل دائم لكنّهم لم يتوقفوا أبداً. فكانوا عندما ينتهون من فقرة يبدءون على الفور فى الأخرى دون أن ينطقوا الكلمات .

شعرت أن أحدهم يشدني من ذراعي، وكان الصغير عيسو الذي كان يشير إلى بأن التزم الصمت وأن أذهب معه.

كان عيسو في نفس سني، وكان آخر أبناء العجوز حزقيال، كان ما أخذه عن والديه هو تعبير الوجه الجامد والمتوتر فقط، ولكنه كان ينم عن خبث وقح. ابتعدنا ونحن نزحف في الكرم بينما كان يقول لي: أمامهم نصف ساعة أخرى، يا للملل! تعال أريك جحري.

كان جحر عيسو سرياً. كان يختبىء فيه حتى لا يجده ذووه فيرسلوه ليرعى الماعز أو ليجمع الحلزون من فوق الخضراوات... كان يقضي نهاره بلا عمل بينما كان والده يبحث عنه في الحقول وهو يصرخ.

كان لدى عيسو خزيناً من التبغ، وكان هناك غليونان من الخزف معلقان على أحد الحوائط. ملأ احدهما، وأراد أن أدخن، وعلّمني كيف أشعله. وبدأ ينفث دخاناً بملء فمه بشراهة لم أرَها من قبل في غلام، كانت المرة الأولى التي أدخن فيها، فأحسست بالتعب على الفور وتوقفت. وليكسب ثقتي قام عيسو بإخراج زجاجة من خمر الجرابا وصب لي كأساً جعلني أسعل وأشعر بتقلص في أمعائي، أما هو فكان يشربها كالماء.

وقال: من الصعب جداً أن أسكر.

فسألته: ولكن من أين حصلت على كل هذه الأشياء التي تحتفظ بها في الجحر؟

فقال عيسو وهو يشير مفتخراً بأصبعه: مسروقة.

كان قد نصّب نفسه زعيماً لعصابة من الأولاد الكاثوليك الذين كانوا ينهبون القرى المحيطة، ولم يكتفوا بتجريد الأشجار من ثمارها فحسب، بل كانوا يدخلون إلى المنازل والحظائر، وكانوا ينطقون بالسباب بطريقة أكثر حدة ويكررونه أكثر من المعلم بيتروكيودو: وكانوا يعرفون كل السباب الكاثوليكى والهوغونى ويتبادلونه فيما بينهم.

استرسل قائلاً: واقترف أيضاً خطايا أخرى كثيرة، أشهد شهادة زور، وأنسى رى الفاصوليا بالمياه ، ولا أحترم أبى وأمى، وأعود إلى المنزل فى وقت متأخر من الليل.

وحالياً أريد أن أرتكب جميع الخطايا الموجودة، حتى تلك التى يقولون إننى لست كبيراً

بدرجة كافية لأفهمها.

فسألته: كل الخطايا .. حتى القتل؟

فرفع كتفيه: حالياً القتل لا يناسبنى ولا يفيدنى.

فقلت - ليكون لدى شيء أفتخر به مع عيسو: يقولون إن خالى يقتل ويدفع للقتل رغبةً فى الاستمتاع.

فقال: إنها متعة المعتوهين.

ثم بدأ الجو يرعد و بدأت تمطر خارج الجحر.

فقلت لعيسو: س يبحث عنك أهلك. أنا لم يبحث أحد عنى قط، ولكنى كنت دائماً أرى آباء الأولاد الآخرين يبحثون عنهم، وخاصة عندما تسوء حالة الجو، وكنت أعتقد أن هذا شىء مهم.

فقال عيسو: لننتظر هنا حتى تتوقف الأمطار، ولنلعب بالنرد.

وأخرج النرد وصفاً من العملة، ولكننى لم أكن أملك نقوداً فلعبت على ما أملك من مزامير، وسكاكين ومقالع وخسرتها جميعاً.

وفى النهاية قال لى عيسو: لا تيأس... فأنا أغش فى اللعب.

وخارج الجحر اشتد الرعد والبرق والأمطار. وغرق جحر عيسو، فوضع التبغ والأشياء الأخرى فى مأمن وقال:

- ستمطر سيولاً طوال الليل، من الأفضل أن نجرى ونحتمى بالمنزل.

و أغرقتنا المياه والأوحال إلى أن وصلنا إلى منزل العجوز حزقيال.

وكان الهوغونيون جالسين حول المائدة على ضوء مصباح، يحاولون تذكر بعض أحداث الكتاب المقدس دون التأكد من حقيقة معناها ومغزاها، و يحاولون أن يقصوها كما يبدو لهم أنهم قرءوها فى الماضى.

وعندما ظهر عيسو معى على عتبة الباب صرخ حزقيال وهو يضرب على المائدة حتى أطفأ المصباح: فليحل بكم الطاعون والمجاعة!

أخذت أسنانى تصطك، وهز عيسو كتفيه غير مكترث. أما خارج المنزل فكان يبدو أن كل الرعود والصواعق قد انصبت على تل جيربيدو. وبينما كانوا يشعلون المصباح من جديد أخذ العجوز يعدد خطايا ابنه رافعاً قبضتيه، وكأنها أبشع خطايا ارتكبها إنسان، ولكنه لم يكن يعرف منها سوى الشىء اليسير.

كانت الأم توافقه فى صمت، ، وكان الآخرون جميعاً من أبناء وأزواج بنات وزوجات أبناء وأحفاد يستمعون وذقونهم فوق صدورهم ووجوههم مختبئة بين أيديهم، وكان عيسو يقضم تفاحة كما لو كانت هذه الموعظة لا تخصه فى شىء. أما أنا فوسط صوت الرعد وصوت حزقيال كنت أرتعش كورقة شجرة الأسَل .

وتوقف التوبيخ بوصول رجال الحراسة وهم يرتدون الأكياس ليغطوا رءوسهم، وجميعهم مبللون بالأمطار. وكان الهوغونيون يتناوبون الحراسة طوال الليل وهم مسلحون بالبنادق والمناجل، والمذرات اتقاءً لغزوات الفسكونت الغادرة ، الذى أصبح الآن عدوهم المعلن.

فقال له هؤلاء الهوغونيون : يا أبانا حزقيال. إنها ليلة ليلاء. من المؤكد أن الأعرج لن يأتى. هل يمكن أن نلجأ إلى منازلنا يا أبتاه ؟

وسأل حزقيال: ألا توجد أية آثار للمعوق في الجوار؟

- لا يا أبت، إذا استثنينا رائحة الدخان التي تتركها الصواعق، إن هذه الليلة ليست ليلة الأعور.

- إذاً فلتمكثوا في المنزل ولتغيروا ملابسكم. ولتأت العاصفة بالسلام على وحيد الجنب وعلينا.

والأعرج والمعوق والأعور ووحيد الجنب كانت هذه بعض الألقاب التي يشير بها الهوغونيون إلى خالي، ولم أستمع إليهم أبداً يدعونه باسمه الحقيقي، إنهم في أحاديثهم هذه كانوا يحاولون نزع التكلف مع الفسكونت، وكأنهم يعلمون عنه الكثير ، وكأنه عدو قديم لهم، كانوا يتبادلون فيما بينهم جملاً مختصرة مصحوبة بالغمزات والضحكات الساخرة: إه إه ، الأعرج... فعلاً هكذا، النصف أصم..... وكأن جميع أعمال مداردو الجنونية الغامضة واضحة لهم ومتوقعة.

وبينما هم يتحدثون هكذا سمعوا وسط العاصفة طرق قبضة على الباب، فقال حزقيال: من يقرع الباب في هذا الجو ؟! فلتفتحوا له بسرعة..

وفتحوا الباب وعلى العتبة كان الفسكونت يقف على ساقه الواحدة، ملتفحاً بعباءته السوداء التي يتساقط منها المياه، وقبعته ذات الريش الغارقة بالأمطار.

وقال:

- لقد ربطت جوادى في حظيرتكم، استضيفوني أنا أيضاً، أتوسل إليكم إنها ليلة سيئة لكل عابر.

ونظر الجميع إلى حزقيال، وكنت أنا قد اختبأت تحت المنضدة حتى لا يكتشف خالى أننى أذهب إلى منزل أعدائه.

قال حزقيال: اجلس بجانب النار، إن الضيف فى هذا المنزل موضع ترحاب دائماً.

وبالقرب من المدخل كانت توجد كومة ملاءات من تلك التى يمدونها تحت الأشجار لجمع الزيتون، فرقد مداردو فوقها واستغرق فى النوم.

وفى الظلام اجتمع الهوغونيون والتفوا حول حزقيال وهم يهمسون

- ياأبتِ، إن الأعرج أصبح الآن بين أيدينا.

- أنتركه يهرب؟ أنتركه يرتكب جرائم أخرى ضد الأبرياء؟

- ألم تحن الساعة ليدفع هذا المعوق ما عليه يا حزقيال ؟

رفع العجوز قبضتيه تجاه السقف وصرخ: فليحل بكم الطاعون و لتنزل بكم المجاعة - هذا إذا كان من الممكن أن نقول عمن يتحدث بكل قوته دون إصدار أى صوت أنه يصرخ - فى منزلنا لم يسبق أن

تعرض ضيف للخطر، سأذهب لحراسته بنفسى أثناء نومه...

ووقف وبندقيته معلقة على كتفه بجوار الفسكونت النائم.

عندئذ فتح مداردو عينيه وسأله: ماذا تفعل هنا يا معلم حزقيال؟

- أحرسك أثناء نومك أيها الضيف. فإن كثيرين يكرهونك.

قال الفسكونت: أعلم هذا، و لهذا لا أنام فى القصر لأننى أخشى أن يقتلنى خدمى أثناء نومى.

- وفى منزل لا نحبك يا معلم مداردو، ولكن فى هذه الليلة لك كل الاحترام.

التزم الفسكونت الصمت لبضع دقائق ثم قال: يا حزقيال أريد أن أعتنق ديانتكم.

لم ينبس العجوز ببنت شفة.

فأكمل مداردو - إننى محاط بأناس ليسوا محلاً للثقة، أريد أن أتخلص منهم جميعاً، وأدعو الهوغونيين إلى قصرى، وستصبح أنت وزيرى يا سيد حزقيال وسأعلن تيرالبا أرضاً هوغونية، وسأعلن الحرب ضد الأمراء الكاثوليك.وستكون أنت وأتباعك الرؤساء هل توافق يا حزقيال؟ هل يمكنك أن تهدينى؟!

كان العجوز واقفاً فى سكون بصدره العريض عليه حزام البندقية وقال:

- لقد نسيت أشياء كثيرة جداً عن ديننا ولا أجرؤ على هداية أحد ، سأبقى فوق أرضى حسب ضميرى، و كذلك أنتم فوق أرضكم.

استند الفسكونت على كوعه : أتعلم يا حزقيال أننى لم أرسل بعد لمحكمة التفتيش بوجود مهرطقين فوق أرضى؟ و أن تقديم رءوسكم لأسقفنا ستجعلنى محل رضا رئاسة الكنيسة فوراً؟

فقال العجوز: إن رءوسنا ما زالت ثابتة فوق رقابنا يا سيدى، ولكن يوجد شىء آخر من الصعب جداً أن تنزعوه منا..

قفز مداردو على قدمه واقفاً وفتح الباب - سأنام بكل سرور تحت شجرة البلوط هناك فهذا أفضل من منزل أعدائى. وقفز مبتعداً تحت الأمطار.

استدعى العجوز الآخرين: يا أبنائى، مكتوب أن يأتى الأعرج أولاً ليزورنا. والآن ها هو قد مضى؛ وصار درب منزلنا خالياً، لا تيأسوا يا أبنائى، ربما يأتى يوماً عابر أفضل منه.

- فأحنى جميع الرجال الملتحين والنساء المحجبات رءوسهم..

وأضافت زوجة حزقيال: وحتى إن لم يأتِ فإننا سنمكث فى مكاننا.

عندئذ أضاءت صاعقة السماء وتسبب الرعد فى اهتزاز قرميد الأسوار وحجارتها. وصرخ طوبيا:

إن الصاعقة نزلت على شجرة البلوط! و هى الآن تحترق !

وأسرعوا إلى الخارج بالمشاعل ورأوا الشجرة الكبيرة و قد تفحّم نصفها من قمتها إلى جذورها أما النصف الثانى فلم يُمَسّه أذى. و من بعيد، تحت الأمطار، سمعوا صوت حوافر جواد، وفى ضوء البرق رأوا صورة الفارس النحيل فى عباءته.

فقال الهوغونيون : لقد أنقذتنا يا أبانا، شكراً يا حزقيال.

بدأ النور يزحف فى السماء عند المشرق وطلع الفجر...

استدعانى عيسو جانباً وقال لى بصوت منخفض وهو يُرينى حفنة من الأشياء اللامعة: ألا ترى أنهم بلهاء، انظر ما فعلته أنا فى هذه الأثناء، أخذت كل الحلى الذهبية من فوق السرج بينما كان الجواد مربوطاً فى الأسطبل. ألا ترى أنهم أغبياء لأنهم لم يفكروا بهذا؟

لم يكن تصرف عيسو هذا يروق لى وكانت تصرفات أقاربه تثير حيرتى. و لذلك كنت أفضل أن أكون وحدى وأن أذهب إلى شاطئ البحر لأجمع الأصداف ولأصطاد سرطان البحر، وبينما كنت واقفاً على حافة صخرة أحاول إخراج سرطان بحر صغير من جحره، رأيت فى المياه الهادئة من تحتى انعكاس نصل سيف فوق رأسى، وسقطتُ من الخوف

فى البحر. فقال لى خالى وقد اقترب من كتفى - إمسك، وكان يريدنى أن أتعلق بسيفه من ناحية النصل.

فأجبته: لا، سأخرج وحدى.

وتسلقت صخرة صغيرة كانت المياه تفصلها لمسافة متر واحد عن باقى المجموعة الصخرية.

فقال مداردو : أتصطاد سرطان البحر؟ أما أنا فأصطاد الأخطبوط.

وأرانى فريسته؛ كانت أسماك أخطبوط ضخمة بنية وبيضاء .

كانت جميعها مشطورة نصفين بضربة سيف، ولكنها كانت لا تزال تحرك أذرعها.

قال خالى وهو مستلق على وجهه فوق الصخرة وهو يربت على أنصاف الأخطبوط المتقلصة: آه لو أمكن شطر كل ما هو كامل، فيخرج كل إنسان ويتخلص من كماله البليد الجاهل، كنت كاملاً وكانت الأشياء جميعها بالنسبة لى طبيعية ومختلطة، وتافهة مثل الهواء؛ كنت أعتقد أنى أرى الكل فلم أكن أرى سوى القشرة. لو صرت نصف نفسك، وأتمنى لك هذا يا غلام، فستفهم أشياء تفوق الذكاء العادى للعقول الكاملة، ستفقد نصفك و نصف العالم، ولكن النصف الباقى سيكون أعمق وأكثر قيمة ألف مرة، وسترغب أنت أيضاً فى أن يكون كل شىء مشطوراً وممزقاً

على صورتك، لأن الجمال والحكمة والعدل موجودة فقط فيما هو مشطور.

فقلت أنا: أوه، يالكثرة سرطان البحر هنا. وتظاهرت أننى أهتم فقط بصيدى وذلك لأبتعد عن سيف خالى، ولم أعد إلى الشاطئ إلا عندما ابتعد بصيده من الأخطبوط، ولكن صدى كلماته أخذ يزلزلنى ولم أكن أجد ملجأ من رغبته المحمومة فى شطر كل شىء. وأينما كنت ألتفت كنت أرى تريلاونى وبيتروكيودو، والهوغونيين والمرضى بالجذام تحت السيف الذى يسلطه هذا الرجل المشطور، كان هو السيد الذى نقوم على خدمته والذى لم يكن فى إمكاننا التحرر منه.

(٦)

فى وقت مبكر من الصباح كان مداردو دى تيرالبا يصعد و يهبط قافزاً و هو مربوط إلى سرج جواده، ويظهر فى الوادى وهو يتفحصه بعين طائر جارح. وهكذا رأى الراعية باميلا فى أحد المراعى مع ماعزها.

قال الفسكونت لنفسه: "هأنذا لا أجد بين مشاعرى الدقيقة ما يقابل ما يسميه الكاملون حباً. وإذا كان مثل هذا الشعور البليد عندهم له كل هذه الأهمية، فمن المؤكد أن ما يقابله لدى من شعور سيكون رائعاً وفظيعاً".

وقرر أن يقع فى حب باميلا، كانت باميلا تميل إلى السمنة، حافية القدمين ترتدى رداءً بسيطاً وردياً، وكانت، وهى تنعس، مستلقية على بطنها فوق الحشائش تتحدث إلى الماعز وتستنشق رائحة الزهور.

ولكن الأفكار التى كونها هو ببرود يجب ألا تخدعنا. فبمجرد أن رأى باميلا، شعر مداردو بحركة غامضة فى دمائه، بشىء لم يختبره منذ وقت طويل، فلجأ لتلك المبررات بنوع من السرعة المخيفة.

فى منتصف النهار رأت باميلا فى طريق عودتها، أن جميع أزهار المارجريت فى المروج ليس لها سوى نصف البتلات بينما كانت بتلات النصف الآخر قد نُزعت.

وقالت لنفسها: يا لتعاستى! أ من بين جميع فتيات الوادى يحدث هذا لى أنا!؟

كانت قد فهمت أن الفسكونت وقع فى حبها، فجمعت كل أنصاف المارجريت وأخذتها إلى منزلها ووضعتها بين صفحات كتاب صلاة القداس.

وبعد الظهيرة ذهبت إلى مرج الراهبات لترعى البط وتجعله يسبح فى البركة، وكان المرعى مغطيًا بأزهار السيسارون البيضاء، و نالت هذه الأزهار كذلك نفس مصير المارجريت كما لو أن جزءاً من كل قُطِع بضربة مقص، وقالت لنفسها:

- يا لتعاستى، إنه يريدنى أنا بالذات، وجمعت باقة من السيسارون المشطور لتضعها فى إطار مرآة الكومودينو.

ثم توقفت عن التفكير فى هذا، وربطت ضفيرتها حول رأسها وخلعت رداءها ونزلت لتستحم فى البحيرة مع بطها.

وفى المساء وعند عودتها إلى المنزل عبر المروج، كانت هذه مليئة بالهندباء البرية والتى يقال عنها "الطرخشقون". ورأت باميلا أن تلك النباتات فقدت ريشها من اتجاه واحد فقط، كما لو أن أحدًا استلقى على الأرض وأخذ ينفخ فيها من اتجاه واحد، أو بنصف فم فقط.

فجمعت باميلا بعضاً من تلك الأنصاف البيضاء، ونفخت فيها فطار ريشها الناعم بعيداً.

وقالت لنفسها: يا لتماستى، إنه يريدنى أنا. كيف سينتهى الأمر؟

كان كوخ باميلا صغيراً جداً إلى حد أنه بمجرد إدخال الماعز فى الدور الأول والبط فى الدور الأرضى لا يعود هناك موطئ لقدم، وكان الكوخ محاطاً بالنحل، لأنه كان لديهم خلايا نحل أيضاً. وكان باطن الأرض مليئاً بجحور النمل، فيكفى أن يضع المرء يده فى أى مكان ويرفعها بعد ذلك ليجدها سوداء مغطاة بالنمل، ولما كان الحال هكذا، كانت أم باميلا تنام فى مخزن التبن، وكان أبوها ينام داخل برميل فارغ، وأما هى فكانت تنام فى سرير معلق بين شجرة تين وشجرة زيتون.

وعلى عتبة الكوخ توقفت باميلا، كانت هناك فراشة ميتة، كان أحد أجنحتها ونصف جسدها قد سُحقا بحجر.

فصرخت باميلا واستدعت والديها... وسألتهما:

- من كان هنا؟

فأجابها أبواها: إنه الفسكونت! فقد مرَّ من هنا منذ قليل، قال إنه يطارد فراشة قرصته.

فقالت باميلا: منذ متى تقرص الفراشات أحداً...؟

- ونحن أيضاً نتساءل عن هذا.

قالت باميلا: إن الحقيقة هى أن الفسكونت وقع فى حبى ويجب أن نستعد لما هو أسوأ.

فأجابها العجوزان، كما اعتاد المسنون أن يجيبوا عندما يتحدث الصغار هكذا:

- ها ها، لا تختالى و تتعالى، ولا تبالغى.

وفى اليوم التالى عندما وصلت إلى الصخرة حيث كانت تعتاد الجلوس لترعى الماعز، أطلقت باميلا صرخة، كانت هناك بقايا بشعة تغطى الصخرة: نصف وطواط ونصف قنديل بحر، الأول ينزف دماء سوداء والآخر تخرج منه مادة لزجة، الأول مفرود الجناح والآخر أطرافه طرية جيلاتينية، وفهمت الراعية أنها رسالة معناها : موعدنا هذا المساء على شاطئ البحر، واستجمعت باميلا شجاعتها وذهبت.

وعلى شاطئ البحر جلست على الحصى وأخذت تستمع إلى هدير الأمواج البيضاء. ثم سمعت وطئاً

على الحصى، وكان مداردو يقفز بحصانه على الشاطئ، توقف وحل الحزام ونزل من فوق السرج.

وقال لها: باميلا لقد قررت أن أهيم بك حباً...

فقفزت واقفة وقالت: ألهذا تمزق كل مخلوقات الطبيعة؟

فتنهد الفسكونت وقال: باميلا، ليست لدينا لغة أخرى نتحدث بها سوى هذه. فكل لقاء بين مخلوقين فى العالم ليس إلا تمزقًا. تعالى معى، فأنا على معرفة بهذا الشر، وستكونين آمنةً معى أكثر من أى إنسان آخر، لأنى أصنع الشر كما يصنعه الآخرون جميعاً، ولكن يدى، بخلاف الآخرين، أكثر ثباتاً.

-أوستمزقنى أنا أيضاً كما فعلت مع زهور المارجريت وقنديل البحر؟

- أنا لا أعرف ما سأفعله معك، ولكن من المؤكد أن حصولى عليك سيمكننى من القيام بأمور لم أكن أتخيلها، سآخذك إلى القصر وأضعك هناك ولن يراك أى إنسان آخر، وستكون أمامنا أيام وشهور لنعرف ماذا يجب أن نفعل، ولنبدع دائماً طرقاً جديدة لنبقى بها معاً.

كانت باميلا مستلقية على الحصى ومداردو راكعًا بجانبها؛ وكان أثناء حديثه يحرك ذراعه فيمر بيده حول جسدها ولكن دون أن يمسها.

- حسناً ! أريد أن أعرف أولاً ماذا ستفعل لى ويمكن أن تذيقنى إياه الآن، و عندئذ سأقرر إذا كنت سأذهب معك إلى القصر أم لا ...

وببطء قرّب الفسكونت يده الرفيعة المقوّسة من وجنة باميلا، كانت يده ترتعش ولم يكن واضحاً إذا كانت تمتد لتربت عليها أم لتخدشها.

ولكنه قبل أن يلمسها سحب يده فجأة وقام منتصباً وقال وهو يثبت نفسه فوق الجواد: - إننى أريدك فى القصر، سأذهب لأعد البرج الذى ستسكنين فيه، سأترك لك يوماً آخر لتفكرى فى الأمر وبعد ذلك يجب أن تكونى قد قررت أمرك.

قال هذا و هو يضرب جواده بالمهماز لينطلق من تلك الشواطئ.

وفى اليوم التالى صعدت باميلا كالعادة فوق الشجرة لتجمع التوت، وسمعت أنيناً وصوت جسم يترنح بين الفروع، وكادت أن تسقط خوفا، كان هناك ديك مقيد من جناحيه بأحد الفروع وكانت هناك ديدان كبيرة زرقاء اللون ومليئة بالشعر تلتهمه :وهى حشرات شريرة تعيش على شجر الصنوبر، وكان عشها موضوعاً فوق العرف...

وكانت هذه رسالة رهيبة أخرى من رسائل الفسكونت، وفسرت باميلا الرسالة: "غداً فى الفجر سنتقابل فى الغابة" .

وبحجة أنها ذاهبة لتملأ كيساً من الصنوبر، ذهبت باميلا إلى الغابة، وظهر مداردو من خلف جذع شجرة مستنداً على عكازه .

وسأل باميلا: إذا هل قررت المجىء للقصر؟

كانت باميلا مستلقية على أشواك الصنوبر، وقالت وهى تلتفت له بالكاد: قررت ألا أذهب، إذا كنت تريدنى، فلتأتِ لمقابلتى فى الغابة.

- ستأتين إلى القصر؛ فالبرج الذى يجب أن تسكنى فيه قد تم إعداده وستكونين سيدة القصر الوحيدة.

- أنت تريد أن تحتفظ بى سجينة هناك، وربما تقوم بحرقى بعد ذلك أو تعطينى طعاماً تقرضه الفئران. لا، لا! لقد قلتها لك، سأكون لك إذا أردت هذا ولكن هنا فوق أشواك الصنوبر .

فجلس الفسكونت القرفصاء بجوار رأسها، وكان يمسك إبرة من إبر الصنوبر فى يده. قربها من عنقها وأدارها حوله، شعرت باميلا بالقشعريرة خوفاً ولكنها بقيت ساكنة، كانت ترى وجه الفسكونت المنحنى فوقها، هذا" البروفيل" الذى يظل "بروفيلاً " حتى وهى تنظر لوجهه من الأمام و نصف الأسنان تلك التى تكتسى بابتسامة على هيئة المقص.

وضغط مداردو على إبرة الصنوبر فى قبضته وحطمها. ثم قام وقال : حبيسة القصر! أريدك حبيسة القصر!

عندئذ أدركت باميلا أنه يمكنها أن تجازف وحركت قدميها الحافيتين فى الهواء قائلة: هنا فى الغابة لن أقول لا؛ أما إيى مكان مغلق فلن أذهب و لو دفعت حياتى ثمناً لهذا.

قام مداردو وهو يضع يده على كتف جواده الذى كان قد اقترب و كأنه يمر هنالك بالصدفة، وصعد على السرج وجرى مبتعداً فى مدقات الغابة.

فى تلك الليلة نامت باميلا فى سريرها المعلق بين شجرتى الزيتون والتين؛ وفى الصباح أصابها الرعب إذ وجدت جيفةً صغيرةً تنزف الدماء فى حجرها: كانت عبارة عن نصف سنجاب، مقطوع كالعادة بالطول، ولكن ذيله الأصفر المحمر سليم لم يُصِبّه أذى..

قالت لوالديها: آه يا لى من شقية! هذا الفسكونت لن يتركنى أعيش.

و أخذ الأب و الأم يتبادلان بين أيديهما جيفة السنجاب.

و قال الأب: لكنه ترك الذيل سليماً. ربما كانت هذه علامة طيبة.

ثم قالت الأم: ربما بدأ يصبح طيباً.

قال الأب: إنه يقطع دائماً كل شىء نصفين، و لكنه يحترم أجمل ما فى السنجاب: ذيله.

و قالت الأم: ربما تريد تلك الرسالة أن تقول إنه سيحترم كل ما بك من طيب و جميل.

وضعت باميلا يديها فى شعرها يأساً و قالت: ما الذى أسمعه منكما يا أبى و أمى! إن هناك شيئاً وراء هذا، إن الفسكونت قد تحدث معكما.

قال الأب: لا لم يتحدث معنا، و لكنه أرسل يقول لنا إنه يريد أن يزورنا، و إنه سيهتم بأحوالنا البائسة.

- يا أبتِ، إذا جاء ليتحدث معك انزع غطاء خلايا النحل، أرسل النحل نحوه.

فقالت العجوز: يا بنيتى ربما يكون السيد مداردو فى طريقه للتحسن.

- يا أمى إذا جاء ليتحدث معكما، قيداه فوق أعشاش النمل و اتركاه هناك.

فى تلك الليلة اشتعل مخزن التبن حيث كانت الأم تنام وتحطم البرميل الذى كان ينام فيه الأب. و فى الصباح بينما كان العجوزان يتأملان بقايا الكارثة، ظهر الفسكونت.

قال: يؤسفنى أننى أخفتكما هذه الليلة، و لكن لم أكن أعرف كيف أتطرق إلى الموضوع. فى الواقع، أنا معجب بابنتكما باميلا وأريد أن آخذها معى إلى القصر؛ ولذلك فإننى أطلب منكما بصفة رسمية أن تزوجانى إياها. فإن حياتها ستتغير وحياتكما أنتما أيضاً.

فقال العجوز: هل تعتقد يا سيدى أننا لن نكون مسرورين؟ ولكن ليتك تعرف طابع ابنتى! لقد قالت لى أن أهيج ضدك نحل الخلايا، أتتخيل هذا؟

وقالت الأم: أتعرف يا سيدى ولقد طلبت أن نقيّدك فوق جحور النمل.

ومن حسن الحظ عادت باميلا إلى منزلها مبكراً فى ذلك اليوم.

فوجدت أباها وأمها مقيدَيْن ومكممَيْن؛ أحدهما فوق خلية النحل، والآخر فوق جحور النمل.

ومن حسن الحظ أيضاً أن النحل كان يعرف العجوز والنمل كان لديه ما يفعله فلم يقرص العجوز، وهكذا استطاعت أن تنقذ الاثنين معاً.

قالت باميلا: هل رأيتما كيف أصبح الفسكونت طيباً ؟

لكن العجوزان كانا ينويان عمل شىء...وفى اليوم التالى ربطا باميلا وحبساها فى الكوخ مع الحيوانات، وذهبا إلى القصر ليبلغا الفسكونت أنه إذا كان يريد ابنتهما فعليه أن يرسل أحداً لإحضارها، فهما على استعداد لتسليمها له.

ولكّن باميلا كانت لها القدرة على مخاطبة حيواناتها. فقام البط بتحريرها من قيودها بمناقيره، وفتحت الماعز الباب بقرونها، وهربت باميلا مبتعدة مصطحبة معها عنزتها وبطتها المفضلتّين وذهبت

لتعيش فى الغابة، وسكنت مغارة لم يكن يعرفها سواها وغلام كان يقوم بإحضار الطعام ونقل الأخبار إليها، وكنت أنا هذا الغلام. فى الغابة مع باميلا كانت الحياة جميلة، كنت أحضر لها الفاكهة، والجبن والأسماك المقلية، وكانت هى فى المقابل تعطينى كوباً من لبن عنزتها وبعضاً من بيض بطتها. وعندما كانت تستحم فى البركة وفى جداول المياه، كنت أقوم أنا بالحراسة حتى لا يراها أحد.

وأحياناً كان خالى يمر بالغابة، ولكنه كان يظل مبتعداً بالرغم من أنه كان يعلن عن وجوده بطرقه الكئيبة المعتادة. ففى بعض المرات كان سيل من الحجارة يسقط بالقرب من باميلا وحيواناتها، وفى أحيان أخرى كان جذع شجرة صنوبر تستند عليه ينهار، وذلك نتيجة ضربات فأس، وأحياناً ثالثة كنا نجد إحدى عيون المياه ملوثة بقايا حيوانات مقتولة.

وكان خالى قد أخذ يذهب للصيد بسهم يحركه بذراعه الواحدة، ولكنه كان قد صار أكثر تعاسة وازدادت نحافته، وكأن آلاماً جديدة أخذت تنخر فيما تبقى من جسده.

فى أحد الأيام كان الطبيب تريلاونى يسير فى الحقول معى عندما قابلنا خالى على حصانه، وكان على وشك أن يصطدم به، وتَسَبَّب فى سقوطه أرضاً. وتوقف الجواد وحافره فوق صدر الإنجليزى. وقال خالى: فسِّر لى أنت يا دكتور: أشعر وكأن الساق التى

ليس لها وجود، متعبة بسبب كثرة المشى. ماذا يمكن أن يكون هذا؟

ارتبك تيرلاونى وبرطم كالعادة، وركض الفسكونت مبتعداً، ولكن لابد أن السؤال قد أثر فى الطبيب، الذى أخذ يفكر فيه، وهو يمسك رأسه بيديه.

ولم أكن قد رأيته من قبل مهتماً هكذا بمشكلة متعلقة بالطب البشرى.

(٧)

حول براتوفونجو كانت تنمو نباتات النعناع وسياج من حصى اللبان، ولم يكن معروفاً إذا كانت هذه هى الطبيعة البرية أم أنها بستان نباتات عطرية، كنت أتجول وصدرى ملىء بأنفاس عطره أبحث عن الطريق المؤدى إلى المربية العجوز سيباستينا.

فمنذ أن اختفت سيباستينا فى الدرب المؤدى إلى قرية الجذام، ازداد شعورى بأننى يتيم. كنت بائساً لأننى لم أعرف عنها شيئا، كنت أسأل جالاتيو عنهاصارخاً وأنا فوق قمة إحدى الأشجار عندما كان يمر، ولكن جالاتيو كان عدواً للأطفال الذين كانوا يقذفونه أحياناً بالسحالى الحية من فوق الأشجار، وكان يرد بإجابات ساخرة وغير مفهومة، بصوته المعسول الرنان، والآن إلى جانب فضولى لدخول براتوفونجو ازدادت رغبتى فى أن أجد المربية

العجوز، فأخذت أتجول بلا هوادة بين النباتات العطرية.

فجأة برز شخص يرتدى السواد و قبعة من القش من بين نباتات الزعتر، وأخذ يسير تجاه القرية، كان عجوزاً مجذوماً، وكنت أريد أن أسأله عن المربية، وعندما اقتربت لمسافة كافية تجعله يسمع صوتى قلت دون أن أصرخ: يا... ، يا سيدى المجذوم.

ولكن فى تلك اللحظة عينها، استيقظ شخص آخر بالقرب منى، ربما بسبب صوتى، وجلس وأدار وجهه نحوى، كان وجهه كله مليئاً بالتجاعيد، كقشرة جافة، ولحية صوفية خفيفة بيضاء.

وأخذ مزماراً من جيبه وأطلق صفيراً تجاهى، كأنه يسخر منى. وعندئذ أدركت أن بعد الظهيرة المشمسة كانت مليئةً بمرضى الجذام المستلقين والمختبئين بين النباتات، الذين أخذوا ينهضون رويداً رويداً فى ملابسهم الصوفية زاهية الألوان، ويسيرون ضد الضوء نحو براتوفونجو. وكانوا يحملون فى أيديهم الآت موسيقية أو زراعية، وكانوا يحدثون بها جلبة، تقهقرتُ للوراء لأبتعد عن ذلك الرجل الملتحى، ولكننى كدت أسقط على سيدة مصابة بالجذام لا أنف لها، كانت تمشط شعرها وسط أغصان شجرة اللاورو، وكلما كنت أقفز فى أنحاء البستان كنت أجد نفسى دائماً أمام مرضى الجذام. وعندئذ أدركت أن كل خطوة أخطوها ستؤدى بى فقط تجاه

براتوفونجو التى صارت أسقفها المصنوعة من القش المزدانة بشرائط الطائرات الورقية، قريبة أسفل تلك الهضبة.

كان مرضى الجذام يلتفتون إلىّ من فترة لأخرى، وذلك بغمزات العيون ونغمات الأرغون الصغير، ولكننى كنت أشعر أننى الهدف الوحيد لمسيرتهم هذه، وأنهم يقومون باصطحابى إلى براتوفونجو حيواناً أسيراً. وفى القرية كانت أسوار المنازل ملونة باللون البنفسجى، ومن إحدى النوافذ أطلت سيدة نصف عارية تعزف القيثارة و على وجهها وصدرها بقع بنفسجية وصرخت: لقد عاد الزرّاع. ثم عزفت قيثارتها، وأطلت سيدات أخريات من النوافذ ومن الأسطح وكن يحركن الأجراس مغنيات و قائلات: حمداً لله على سلامتكم أيها الزرّاع.

كنت حريصاً على أن أظل وسط ذلك الزقاق وألا ألمس أحداً، ولكننى وجدت نفسى وكأننى فى تقاطع الأزقة ، محاطاً بالمجذومين من كل جانب، كانوا يجلسون رجالاً ونساءً فوق أعتاب منازلهم وهم يرتدون أرديتهم الممزقة، باهتة الألوان والتى منها كانت تظهر أثداؤهن و عوراتهن ، وكن يضعن فى شعرهن أزهار زعرور الوديان وشقائق النعمان.

أقام المجذومون حفلة موسيقية صغيرة أعتقد أنها كانت للترحيب بى. فكان بعضهم يشيح بالكمان تجاهى بحركات مبالغ فيها من قوسه، وآخرون كانوا

يقلدون نقيق الضفادع بمجرد أن أنظر إليهم، وآخرون كانوا يعرضون أمامى عرائس غريبة تصعد على أحد الأسلاك وتنزل عليه.

كانت المعزوفة الموسيقية مكونة تقريباً من هذه الحركات والأصوات غير المتناغمة ولكن كان هناك قرار يرددونه من حين لآخر:

- الكتكوت غير المبقع، ذهب لجمع التوت فتبقع.

فقلت بصوت مرتفع: إننى أبحث عن مربيتى، سيباستينا العجوز أتعرفون أين هى؟

فانفجروا فى الضحك بطريقتهم المميزة والخبيثة.

فصرختُ: سيباستينا، سيباستينا، أين أنت؟

فقال أحد المجذومين : ها هى يا غلام! اهدأ يا غلام! وأشار إلى أحد الأبواب.

ففتح الباب وخرجت منه سيدة زيتونية اللون كالعرب، نصف عارية وموشومة بوشم على هيئة أذيال نسور، وأخذت ترقص بطريقة إباحية، ولم أفهم ماذا حدث بعد ذلك: أخذ الرجال والنساء يقفزون أحدهم فوق الآخر وبدءوا ما عرفت بعد ذلك أنه فسق جماعى.

انكمشت و انكمشت و فجأة ظهرت العجوز الضخمة سيباستينا وسط تلك الدائرة وقالت: أيها الأقذار الأشرار على الأقل احترموا تلك النفس البريئة.

وأخذتنى من يدى وجذبتنى بعيداً بينما أخذوا يغنون: الكتوت غير المبقع ذهب لجمع التوت فتبقع.

وكانت سيباستينا ترتدى رداء بنفسجياً فاتح اللون مثل زى الرهبان، وكانت هناك بالفعل بعض البقع التى تغطى وجنتيها غير المجعدتين، كنت سعيداً بأننى وجدت المربية لكن حزيناً لأنها أمسكتنى من يدى ولابد أنها نقلت إلى، الجذام . فقلت لها هذا. فأجابتنى سيباستينا: لا تخشَ شيئا! لقد كان أبى قرصاناً، وجدى ناسكاً. إننى أعرف فوائد كل الاعشاب ضد الأمراض سواء كانت أمراضنا أم أمراض الموريسك. فهم يعالجون أنفسهم بالحبق ونبات الخبزاء. أما أنا ففى السر أصنع بعض الأدوية المغلية من العشبة والرعراع فلا يصيبنى الجذام ما حييت.

وسألتها بعد أن ارتحت كثيراً فى غير اقتناع تام :

- ولكن ما تلك البقع الموجودة فى وجهك يا مربيتى؟

- إنها صبغة القلفونة، أضعها ليعتقدوا أننى أنا أيضاً مريضة بالجذام مثلهم. تعالَ هنا معى لنشرب أحد أنواع الأعشاب الطبية الساخنة جداً، لأنه على من يريد التجول فى تلك الأماكن توخى الحذر.

وأخذتنى إلى منزلها. كان كوخاً بعيداً بعض الشىء، نظيفاً والأشياء مبعثرة فيه، أخذنا نتحدث وأخذت هى تسألنى: ومداردو؟ مداردو؟ وكلما هممت

بالحديث كانت تقاطعنى وتقول: آه ياله من خسيس، يا له من نذل! وقع فى الحب ، يا لها من فتاة مسكينة، وهنا.. وهنا أنتم لا تتخيلون ما يحدث: أتعرف الأشياء التى يبددونها؟ كل الذى ننزعه من أفواهنا ليأخذه جالاتيو، هل تعرف ما يفعلون به هنا؟

جالاتيو هذا إنسان شرير. أتعرف؟ أنه مخلوق شرير، وليس هو فقط ! ياللأمور الفظيعة التى يرتكبونها ليلاً. وفى النهار أيضاً... وتلك النساء، لم أرَ فى حياتى قط عاهرات مثل أولئك، على الأقل كان يمكنهن معرفة رتق ملابسهن ، ولكن حتى هذا لا يعرفنه... فهن مهملات وعاهرات. آه لقد قلت لهن هذا وواجهتهن به ... وهن.. هل تعرف بماذا أجبننى؟

ومن فرط سرورى بزيارتى تلك للمربية سيباستينا ذهبت فى اليوم التالى لأصطاد ثعابين الماء. ووضعت خيط الشص فى بحيرة صغيرة عند منبع النهر وأثناء انتظارى غفوت، لا أعلم إلى متى استمر نومى، ولكنّ ضوضاء أيقظتنى. ففتحت عينىّ ورأيت يداً مرفوعة فوق رأسى، وعليها عنكبوت أحمر سام. فالتفتُّ ووجدتُ خالى بعباءته السوداء.

نهضت وأنا ممتلئ خوفاً، ولكن، فى تلك اللحظة عض العنكبوت يد خالى واختفى بسرعة شديدة.

فقرّب خالى يده من شفتيه، وامتص الجرح بهدوء وقال:

- كنت نائماً ورأيت هذا العنكبوت السام ينسج شباكه و هو يهبط من هذا الفرع متجهاً نحو عنقك فوضعت يدى أمامه وها هو قد قرصنى.

لم أصدق كلمة واحدة مما قاله: فلقد حاول ثلاث مرات على الأقل من قبل اغتيالى بنفس الطرق، ولكن الشيء المؤكد الآن أن العنكبوت قد قرصه وأن يده بدأت تتوّرم.

قال مداردو: أنت ابن أختى؟

أجبته وأنا مذهول لأنها المرة الأولى التى يشير فيها إلىَّ أنه قد تعرف علىَّ:

- نعم

فقال: لقد عرفتك على الفور: وأضاف: آه أيها العنكبوت إن لدىّ يداً واحدةً وأنت تريد أن تصيبها بالتسمم، ولكن من المؤكد أنه من الأفضل أن يحدث هذا ليدى عن أن يخدث لعنق هذا الطفل.

وعلى حد علمى فإن خالى لم يتحدث قط بهذه الطريقة. ومر بخاطرى الشك فى أنه ربما يقول الحقيقة وأنه أصبح فجأة طيباء ولكننى طردت هذا الشك على الفور فهو معتاد على نصب الحيل والفخاخ . من المؤكد أنه كان يبدو مختلفاً جداً، ولم يكن تعبير وجهه ذلك التعبير المشدود القاسى بل كان تعبيراً عاطفياً شاجناً ربما كان هذا بسبب الخوف وألم عضة العنكبوت، ولكن رداءه الملىء بالتراب وهيئته

كانا أيضاً مختلفين عن المعتاد، وكان هذا ما أعطانى ذلك الانطباع: فقد كانت عباءته السوداء ممزقة بعض الشىء، وعليها أوراق أشجار يابسة وأشواك شجر كستناء معلقة على أطرافها. حتى الرداء لم يكن من القطيفة السوداء كالمعتاد، بل كان من الشبيكة منتوفاً باهت اللون . ولم تَعُد قدمه مغروسة فى ذلك الحذاء من الجلد، بل فى شراب من الصوف به خطوط زرقاء وبيضاء..

ورغبةً منى فى التظاهر بعدم الاهتمام به، ذهبتُ لأنظر إذا كان شصى قد اصطاد آياً من ثعابين البحر. ولكن لم يكن هناك أىًّ من ثعابين البحر، ولكننى رأيت خاتماً ذهبياً به فص من الماس معلقاً على الشص، فجذبته إلى أعلى وعلى الحجر الثمين كان هناك شعار تيرالبا.

كان الفسكونت يتابعنى بنظره وقال: لا تندهش! فبينما أنا مار من هنا رأيت أحد ثعابين البحر يحاول أن يخلص نفسه من الشص. وقد شعرت بالألم الشديد حتى أنى أطلقت سراحه، ثم بعد أن فكرت فى الخسارة التى سببتها للصياد بما فعلته، عوضته بخاتمى، وهو آخر شىء ذو قيمة تبقى معى، وأكمل مداردو وأنا أستمع إليه فاغراً فمى من الدهشة:

- ولم أكن أعلم وقتها أنك أنت الصياد. ثم وجدتك نائماً بين الحشائش ولكن سعادتى برؤيتك تحولت إلى

جزع عندما رأيت ذلك العنكبوت الذى كان متجهاً نحوك وأنت تعلم الباقى .

وبينما كان يقول هذا كان ينظر بحزن إلى يده المتورمة البنفسجية.

كان من المحتمل ألا يكون كل هذا إلا مجموعة من الخدع القاسية، ولكننى كنت أفكر كم سيكون هذا التحول المفاجئ فى مشاعره رائعاً، و كم من السعادة سيحملها هذا التحول أيضاً لسيباستينا وباميلا، ولكل الأشخاص الذين يعانون من قسوته.

قلت لمداردو: خالى، انتظرنى هنا... سأذهب سريعاً للمربية سيباستينا التى تعرف جميع الأعشاب وسأجعلها تعطينى العشب الذى يشفى من عضة العنكبوت.

قال الفسكونت، الذى استلقى ويده فوق صدره: المربية سيباستينا! وكيف حالها...؟

لم تواتنى الثقة أن أقول له إن سيباستينا لم تكن قد أُصيبت بالجذام فاكتفيت بأن أقول: لا بأس! سأذهب الآن؛ وجريت مبتعداً، وأنا أتمنى أكثر من أى شىء أن أسأل سيباستينا عن رأيها فى تلك الظواهر الغريبة.

ووجدت المربية فى كوخها، كان نفسى متهدجاً بسبب الجرى واللهفة، وقصصتُ عليها قصةً مرتبكة

ولكن المربية اهتمت بعضة العنكبوت أعمال مداردو الخيّرة.

- هل قلت عنكبوتًا أحمر؟ نعم، نعم! إننى أعرف العشب الذى يلزم. لقد أصيب حطاب بنفس هذا الورم فى ذراعه ذات مرة. هل تقول إنه أصبح طيباً؟ ولكن ماذا تنتظر أن أقول لك؟ لقد كان دائماً غلاماً طيباً، يجب أن يعرف كيف يتعامل معه هو أيضاً. ولكن أين وضعت تلك الأعشاب؟ يكفى أن تصنع له كمادات. إن مداردو شقى منذ طفولته.

ها هو العشب، لقد قمت بالاحتفاظ به فى كيس صغير... عموماً لقد كان هكذا دائماً عندما كان يؤذى نفسه كان يأتى ويبكى لدى مربيته. هل العضة عميقة؟

قلت: إن يده اليسرى منتفخة هكذا.

فضحكت المربية: ها ها ها... يا غلام، اليُسرى؟ ومن أين حصل السيد مداردو على اليد اليسرى؟ لقد تركها هناك فى بوهيميا لدى أولئك الأتراك... ليسحقهم الشيطان، لقد تركها هناك، لقد ترك نصف جسمه الأيسر..

فقلتُ:... حقاً... ولكن... لقد كان هو هناك وكنت أنا هنا، وكانت يده تدور هكذا... كيف يمكن أن يكون هذا؟

فقالت المربية: ألم تعد تعرف اليمين من الشمال الآن؟ رغم أنك تعلمت هذا منذ أن كان عمرك خمس سنوات.

لم أعد أدرك شيئاً، من المؤكد أن سيباستينا كانت على حق ولكننى كنت أتذكر كل شىء بالعكس.

فقالت لى المربية : خذ له هذه الأعشاب و كن ولداً طيباً: وجريت أنا مبتعداً.

ووصلت مقطوع الأنفاس إلى منبع المياه ولكننى لم أجد خالى.

عندئذ نظرت حولى فى كل مكان: كان قد اختفى بيده المتورمة المسممة.

كان المساء يرخى سدوله، وكنت ما زلت أتجول بين أشجار الزيتون. وأخيراً ها هو واقف ملتحف بعباءته السوداء، على الشاطئ يستند على جذع شجرة، كان ظهره أمامى، وكان ينظر تجاه البحر، شعرت بالخوف يتملكنى، ولكننى بصعوبة وبصوت منخفض نجحت فى أن أقول: خالى، ها هو العشب للعضة .

فالتفت نصف الوجه على الفور، وصرخ (متقلصاً فى تكشيرة متوحشة): أى عشب؟ أية عضة؟

فقلت: ولكنه العشب لعلاج...

وها التعبير الرقيق الذى كان على وجهه قبلاً قد اختفى، وكأنه كان مجرد لحظة عابرة، والآن ربما

يكون قد عاد له ولكن ببطء، فى ابتسامة متوترة، ولكن كان واضحاً أنها كانت خدعة.

قال: نعم... شاطر.. ضعه فى تجويف ذلك الجذع... سآخذه فيما بعد...

أطعته ووضعت يدى فى التجويف. وكان عش دبابير، و إذا بالدبابير قد طارت جميعها نحوى. أخذت أجرى والسرب فى أعقابى فألقيت بنفسى فى الماء. و أخذت أسبح حتى نجحت فى أن أهرب من الدبابير. وعندما رفعت رأسى سمعت ضحكة الفسكونت الكئيبة وهو يبتعد..

ها هو قد نجح فى خداعنا مرة أخرى، ولما لم أكن أفهم أشياء كثيرة، ذهبت إلى الطبيب تريلاونى لأتحدث معه فى ذلك، وكان الإنجليزى فى منزله، منزل الحانوتى، منكباً على كتاب تشريح على ضوء مشعل صغية، وهو شىء نادر الحدوث. سألته: دكتور، هل حدث من قبل أن خرج إنسان من قرصة العنكبوت الأحمر دون أن يصاب بأذى...

قفز الطبيب فى الهواء وقال: هل تقول عنكبوتاً أحمر؟ من أيضاً قرصه عنكبوت أحمر؟

قلت: إنه خالى الفسكونت، وقد أحضرت له تواً العشب من المربية عندما كان طيباً كما بدا ثم تحول مرة أخرى إلى شرير ورفض مساعدتى إياه.

قال تريلاونى: لقد عالجت لتوى الفسكونت من قرصة عنكبوت أحمر فى يده..

- قُلّ لى يادكتور: هل بدا لك طيباً أم شريراً...؟

عندئذ قص الطبيب علىَّ ما حدث...

بعد أن تركت الفسكونت مستلقياً على الأعشاب ويده متورمة، مر الطبيب تريلاونى هناك. و لاحظ وجود الفسكونت وأصيب كعادته بالرعب، فحاول أن يختبئ بين الأشجار، ولكن مداردو سمع الخطوات فقام وهتف: "إيه.. من هناك ؟ " ففكر الإنجليزى: إذا اكتشف أنى أنا وأننى أختبئ، من يدرى ماذا يمكن أن يخطط ضدى" وأخذ يهرب حتى لا يتعرف عليه ولكنه تعثر ووقع فى البحيرة. وعلى الرغم من أن الطبيب تريلاونى قد عاش حياته على السفن إلا أنه لم يكن يعرف السباحة، وكاد يغرق وسط البحيرة وأخذ يصرخ طالباً النجدة. عندئذ قال له الفسكونت: انتظرنى...

وذهب إلى الشاطئ ونزل إلى المياه وهو يتعلق بجذر شجرة بارز بيده المتألمة، ومد قدمه حتى يمسك بها الطبيب.. ولما كان طويلاً ونحيلاً فإنه كان بمثابة حبل يمكنه من الوصول إلى الشاطئ.

وعندما صارا فى أمان بدأ الطبيب فى التلعثم: آه آه يا سيدى، أشكرك.. حقاً لا أعرف كيف.. ثم سعل فى وجهه لأنه أُصيب بالبرد.

فقال مداردو: يرحمكم الله.

ثم وضع عباءته على كتفيه وهو يقول: أرجوك غطِّ جسدك.

فتدثر الطبيب مرتبكاً أكثر من أى وقت مضى.

وقال له الفسكونت: تفضل، إنه لك.

عندئذ أدرك تريلاونى بأن يد مداردو متورمة...

- أى حشرة قرصتك؟

- عنكبوت أحمر.

- دعنى أعالجك يا سيدى.

وأخذه معه إلى كوخ الحانوتى الخاص به، حيث ضمّد يده بالعقاقير والأربطة. وفى هذه الأثناء كان الفسكونت يتحدث معه حديثاً مليئاً بالود والإنسانية. وتركا بعضهما على وعد أن يلتقيا فى أقرب وقت ليقويا صداقتهما.

قلت بعد أن استمعت إلى قصته:- دكتور، إن الفسكونت الذى عالجته قد عاد بعد قليل فريسة لجنونه المريض ودفع تجاهى عش دبابير.

قال الطبيب وهو يغمز بعينه : إنه ليس الذى عالجته أنا.

- ما معنى هذا يادكتور؟

- ستعرف فيما بعد. والآن لا تتحدث عن ذلك مع أحد. واتركنى لدراساتى، لأننا الآن أمام فترة مليئة بالمتناقضات.

ولم يُعِرني الطبيب اهتماماً بعد ذلك: وعاد لينهمك فى تلك القراءة غير المعتادة فى تشريح جسم الإنسان، كان لابد وأن لديه خطة فى ذهنه، واستمر كل الأيام التالية كتوماً ومفكراً.

بدأت الأخبار تتدفق من أكثر من جهة حول طبيعة مداردو المزدوجة: أطفال تائهون فى الصحراء يصل إليهم - وسط خوفهم الرهيب - نصف رجل بعكاز يأخذهم من يدهم ليقتادهم إلى منازلهم، ويُهديهم ثمار التين والحلوى المقلية. أرامل فقيرات كان يقوم بمساعدتهن فى نقل حزم صغيرة من الحطب، وكلاب لدغتها الأفاعى كان يعالجها...عطايا غامضة يجدها الفقراء فوق أرفف النوافذ وعلى الأعتاب، وكانت أشجار الفاكهة التى تقتلعها الرياح يتم رفعها و تثبيتها فى تربتها قبل أن يطل أصحابها من أبواب منازلهم.

وفى نفس الوقت كان ظهور الفسكونت نصف المغطى بالعباءة السوداء تترك آثار أحداث حزينة مأساوية: أطفال يُختَطفون و يتم العثور عليهم فيما بعد محبوسين فى كهوف مغلقة بالحجارة؛ جذوع أشجار، وصخور كانت تلقى فوق رءوس نساء مسنات، وثمار قرع على وشك النضج كان يتم تحطيمها حباً فى الشر...

ومنذ فترة كان سهم الفسكونت لا يصيب سوى العصافير بطريقة لا تتسبب فى قتلها ولكن فى جرحها فقط وإصابتها بعجز. أما الآن تظهر فى

السماء العصافير و قد رُبطت أرجلها بجبيرة، ولُصقت أجنحتها ورُبِطت بالأربطة، كان هناك سرب من العصافير على هذا الشكل فكانت تطير فى حذر متجاورة، وكأنها فى فترة نقاهة فى مستشفى للطيور، وكان يُقال ما لا يصدق: إن مداردو نفسه هو الطبيب المعالج.

وذات مرة فاجأت عاصفة باميلا فى مكان ناء لا زرع فيه، ومعها عنزتها وبطتها، وكانت تعلم أنه فى مكان قريب يوجد كهف، وبالرغم من صغر مساحته، فقد كان مجرد فتحة تكاد تظهر من الصخرة. فاتجهت إلى هناك. ورأت حذاء فارس (مستهلكاً ومرقعاً) يظهر من الكهف وفى الداخل كان نصف الجسد منكمشاً فى العباءة السوداء، وكادت أن تهرب ولكن الفسكونت لاحظ وجودها بالفعل، فخرج تحت الأمطار الغزيرة وقال لها:

- تعالى يا فتاة اختبئى هنا..

قالت باميلا: لا لن أحتمى بالكهف...لأنه يكاد يسع شخصاً واحداً، وأنت تريد أن تسحقنى فى الداخل.

قال لها الفسكونت: لا تخافى، سأمكث فى الخارج ويمكنك أن تمكثى على راحتك فى المخبأ مع عنزتك وبطتك.

- العنزة والبطة يمكن أن يتحملا الأمطار.

- سترين أننا سنحميهما أيضاً.

أما باميلا التى كانت قد استمعت عن قصص أعمال الخير التى يقوم بها للفسكونت فقد قالت فى نفسها: لنرَ قليلاً... ودخلت إلى المغارة، وهى تحتضن حيوانيها. وأما الفسكونت فقد وقف أمامهم ممسكاً بمعطفه كخيمة حتى لا تبتل العنزة والبطة أيضاً.

ونظرت باميلا إلى اليد الممسكة بالمعطف، وراحت للحظات فى تفكير عميق، وأخذت تنظر إلى يديها، وتقارن الواحدة بالأخرى، ثم انفجرت فى الضحك..

قال الفسكونت: يسعدنى أنك مسرورة يا فتاة، ولكن هل يمكننى أن أسأل علامَ تضحكين؟

- إننى أضحك لأننى فهمت ما يتسبب فى جنون أهل بلدتى.

- وما هو؟

- إنك تكون أحياناً طيباً وأحياناً أخرى شريراً، و الآن ظهر أن الأمر طبيعى جداً.

- لماذا؟

- لأننى أدركت أنك النصف الآخر، إن الفسكونت الذى يعيش فى القصر -الشرير- هو النصف، وأنت النصف الآخر الذى اعتقد الجميع أنه فُقد فى المعركة ولكنه عاد الآن، وهو نصف طيب.

- أشكرك، إن هذا أمر ظريف منك.

- أوه.. إنه الواقع، ولا أقول هذا مجاملةً.

وها هى قصة مداردو كما عرفتها باميلا فى ذلك المساء: لم يكن حقيقياً أن طلقة المدفع قد مزّقت جزءاً من جسده: بل إنه انقسم نصفين، أحدهما عثر عليه جامعو جرحى الجيش، والجزء الآخر ظل مدفوناً تحت كوم من بقايا أجساد المسيحيين والأتراك، ولم يره أحد .

وفى قلب الليل كان هناك ناسكان متوحدان، ليس معروفاً إذا كانا مؤمنَيْن يتبعان الإيمان المستقيم أم منجمَيْن من أولئك الذين - كما يحدث فى بعض من تلك المعارك - يتحولون ليعيشوا فى الأراضى المهجورة بين المعسكرين، ويحاولون - كما يقال الآن - أن يعتنقوا الثالوث المسيحى وإله محمد معاً.

وعندما وجد هذان الناسكان المتوحدان جسد مداردو المشطور، حملاه بمحبتهما العجيبة إلى مغارتهما، وهناك عالجاه و أنقذاه بالبلسم والمراهم التى أعداها. وبمجرد أن استعاد قوته، ودّع الجريح من قاما بعلاجه وهو مستند إلى عكازه، وعلى مدى الشهور والسنين أخذ يعبر الأمم المسيحية ليعود إلى قصره وهو يثير دهشة الجميع طوال الطريق بأعماله الخيّرة.

وبعد أن قص نصف الفسكونت الصالح قصته على باميلا، أراد أن تقص عليه الراعية قصتها. فشرحت له كيف كان مداردو الشرير يطاردها، وكيف هربت من منزلها وتشردت فى الغابات، وتأثر مداردو

بقصتها وتشتت تأثره بين حال الراعية المطاردة، وبين تعاسة مداردو الشرير الذى لا يجد عزاء و بين وحدة والدى باميلا المسكينين.

قالت باميلا: إن والدى هذين ليسا سوى عجوزين شريرين، ولا يستحقان أية شفقة منك.

- آه يا باميلا فكرى فيهما كيف سيكونان حزينين فى هذه الساعة فى منزلهما القديم، دون أن يرعاهما أحد ويقوم بأعمال الحقل والحظيرة.

قالت باميلا : فلتتحطم الحظيرة فوق رأسيهما ، لقد بدأت أدرك أنك عاطفى بصورة زائدة وبدلاً من أن تتضايق من نصفك الآخر لكل الحماقات التى يرتكبها، يبدو أنك تشعر بالشفقة عليه هو أيضاً.

- وكيف لا أشعر بها؟ وأنا من الذى يعرف ما معنى أن يكون المرء نصف إنسان، لا يمكننى إلا أن أشعر بالأسى عليه.

- ولكنك مختلف، فيك مس من الجنون أنت أيضاً، ولكنك طيب.

عندئذ قال مداردو الطيب: آه يا باميلا، هذه هى ميزة أن يكون الإنسان مشطوراً: أن يدرك ألم كل إنسان و كل شىء فى العالم، الألم الذى يمكن أن يشعر به كل منهم لعدم كماله. لقد كنت كاملاً ولكننى لم أكن أفهم، كنت أتحرك أصم لا أتواصل ولا أشعر بالآلام بين الجروح المنتشرة فى كل مكان، التى لا

يمكن أن يصدقها من كان كاملاً، لم أكن هكذا وحدى يا باميلا، فأنا كائن مشطور ومنقسم ، ولكن هذا حالك أنت أيضاً و حال الجميع. هأنا الآن أشعر بأخّوة لم أكن أدرك وجودها عندما كنت كاملاً، أخوتّى لجميع تمزقات ونقائص العالم، إذا جئتِ معى يا باميلا ستتعلمين أن تتألمى لمعاناة كل إنسان، ستعالجين آلامك و أنت تعالجين جراحهم.

قالت باميلا: هذا شىء رائع.. ولكننى أعانى كارثة كبيرة مع نصفك الآخر الذى وقع فى حبى ولا أعرف ماذا يريد أن يفعل بى.

ترك خالى العباءة تسقط؛ لأن الأمطار كانت قد انتهت و قال : أنا أيضاً قد وقعت فى حبك يا باميلا .

خرجت باميلا من المغارة وهى تقول: يا للسعادة. إن قوس قزح فى السماء وأنا وجدت عاشقاً جديداً. هو أيضاً مشطور ولكنه طيب القلب.

وسارا معاً تحت أغصان تتساقط منها نقط المياه فى مدقات مليئة بالوحل، وكان نصف فم الفسكونت مقوساً فى ابتسامة رقيقة غير كاملة.

قالت باميلا: والآن ماذا نفعل؟

- من رأيى أن نذهب إلى والديك المسكينين لمساعدتهما قليلاً فى أمورهما.

قالت باميلا: اذهب أنت إذا كنت تريد.

قال الفسكونت: نعم يا عزيزتى أرغب فى هذا..

قالت باميلا: وسأبقى أنا هنا. وتوقفت مع عنزتها وبطتها.

- أن نقوم معًا بأعمال الخير هى الطريقة الوحيدة لنحب بعضنا .

- يا للأسف، كنت أعتقد أن هناك طرقاً أخرى

- وداعًا يا عزيزتى! سأحضر لك معى فطيرة تفاح.

وابتعد فى الدرب وهو يضرب بعكازه.

وقالت باميلا وقد صارت وحدها مع حيوانيها.. ما رأيك يا عنزة؟ ما رأيك يا بطتى الصغيرة؟ هل يجب أن يكون نصيبى مع هذه النوعيات؟


https://telegram.me/maktabatbaghdad

(٨)

منذ أن عرف الجميع أن نصف الفسكونت الآخر والذى يتميز بطيبته بقدر ما كان الأول يتميز بشره قد عاد، أصبحت حياة تيرالبا مختلفة تماماً.

فى الصباح كنت أصطحب الطبيب تيرلاونى فى جولته لعيادة المرضى، لأن الطبيب بدأ رويداً رويداً فى العودة لممارسة الطب وأدرك مدى معاناة أهلنا الذين أضعفت المجاعات الطويلة التى حدثت فيما مضى، وهى آلام تكوينهم الجسدى التى لم يكن يهتم بها قط من قبل.

كنا نذهب فى الطرق القروية ونرى الإشارات التى تدل على أن خالى كان قد سبقنا إلى هناك. أقصد خالى الطيّب الذى كان يقوم هو الآخر بجولة كل صباح ليس فقط لزيارة المرضى و إنما لزيارة الفقراء والمسنين وكل إنسان محتاج للمساعدة.

في بستان باشيتشا كانت كل ثمرة من ثمار شجرة الرمان الناضجة ملفوفة بمنديل به عقدة، وفهمنا بذلك أن باشيتشا يعانى من آلام فى أسنانه، وقد إف خالى الرمان حتى لا ينفتح وينفرط الآن حيث أن الألم يمنع صاحب المزرعة من أن يخرج ليجمعه، ولكنها كانت أيضاً إشارة للدكتور تيرلاونى المار أن يزور المريض وأن يأخذ معه أدوات خلع الأسنان.

وكان لرئيس الدير تشيكو شجرة عباد شمس فوق السطح معتلة لا تزهر أبداً . وفى ذلك الصباح وجدنا ثلاث دجاجات مربوطة هناك، فوق السياج، وكانت تأكل الزوان و تضع بقاياها البيضاء سماداً فى أصيص عباد الشمس. ففهمنا أن رئيس الدير مصاب بالإسهال، كان خالى قد ربط الدجاجات الثلاث لتسمد عباد الشمس و لتنبه الطبيب تريلاونى إلى هذه الحالة العاجلة.

و على سلم جيرمينا العجوز رأينا صفاً من القواقع يصعد نحو الباب: و هى من القواقع الكبيرة التى تؤكل بعد طهيها، كانت هدية حملها خالى من الغابة لجيرمينا كما أنها كانت إشارة إلى أن إصابة القلب التى كانت تعانى العجوز منها قد ساءت وعلى الطبيب أن يدخل بهدوء حتى لا يصيبها الخوف.

كل هذه العلامات كان يستخدمها مداردو الطيب حتى لا يزعج المرضى بطلبه رعاية الطبيب لهم بطريقة فجة، و كذلك حتى يدرك تريلاونى مغزى

المرض قبل أن يدخل فيتغلّب على تردده فى دخول بيوت الآخرين و الاقتراب من مرضى لا يعرف كنه مرضهم.

و فجأة كان الإنذار يدوى فى الوادى: الأعرج. الأعرج!

و كان هذا هو النصف الآخر لخالى والذى شوهد يمتطى جواده فى مكان قريب. فكان كل فرد يجرى ليختفى، وقبل الجميع الدكتور تريلاونى وأنا خلفه.

كنا نمر أمام بيت جيرمينا و على سلم دارها كان هناك صف من القواقع المسحوقة، وقد تحولت إلى سائل و بقايا أصداف.

- لقد مرَّ من هنا ! أطلق ساقيك للريح!

و فوق شرفة رئيس الدير تشيكو كانت الدجاجات مربوطة بالشبكة التى وضعت فوقها ثمار الطماطم لتجف، و كانت تفسد كل خيرات الله هذه.

- أطلقوا سيقانكم للريح.

- وفى حقل باشيتشا كان الرمان كله محطمًا على الأرض وعلى الأغصان كانت تتدلى أطراف المناديل الفارغة.

هكذا كنا نقضى حياتنا بين أعمال الخير والرعب. فالجزء الأيسر من خالى الذى كان يسمى "الطيب" كان يُعتبر فى عداد القديسين، على النقيض من "الشرير" وهو الجزء الآخر، وكان المقعدون

والمساكين والسيدات اللاتى تعرضن للخيانة، وكل من كان يشعر بالألم يلجئون إليه. وكان يمكنه الاستفادة من ذلك ليصبح هو الفسكونت، ولكنه استمر يعيش مشرداً، يسير نصفه مغطى بعباءته السوداء الممزقة، مستنداً على العكاز مرتدياً جوربه الأبيض والأزرق الملىء بالرتق، يصنع خيراً سواء لمن يطلب أم لمن كان يطرده بقسوة، ولم تكن هناك شاه تتكسر ساقها بعد أن تسقط فى الهاوية أو سكير يرفع سكينه فى الحانة، أو زوجة زانية تذهب لعشيقها ليلاً، إلا وكانوا يرونه هناك كأنه هبط من السماء، أسودَ نحيلاً بابتسامته الرقيقة، ليقدم المساعدة، وليبدى النصائح المفيدة و ليمنع العنف والخطيئة.

كانت باميلا تعيش دائماً فى الغابة و قد صنعت أرجوحة بين شجرتى صنوبر، ثم صنعت واحدة أخرى أكثر متانة لعنزتها وأخرى أقل صلابة لبطتها، وكانت تقضى الساعات وهى تتأرجح مع حيوانيها، ولكن فى ساعة معينة، وبينما هى تتأرجح بين شجرتى الصنوبر، كان يصل الطيب، ومعه بقجة مربوطة فى كتفه، تحتوى على ملابس يجب غسلها ورتقها، كان يقوم بجمعها من المتسولين واليتامى والمرضى الذين ليس لهم أحد؛ ويجعل باميلا تقوم بإصلاحها، وهكذا كان يعطيها الفرصة لأن تقوم هى أيضاً بفعل الخير. وأما باميلا التى كانت تمل من وجودها دائماً بالغابة فكانت تقوم بغسل تلك الملابس فى النهر، وكان هو يساعدها. ثم كانت تَبْسط كل شىء ليجف على حبال

الأرجوحات، وأثناء ذلك كان الطيب يقرأ لها... "أورشليم المحررة"(*) وهو جالس على حجر.

كانت القراءة لا تعنى شيئاً بالنسبة لباميلا فكانت تستلقى على ظهرها فوق الحشائش وهى تتقمل (لأنها بسبب حياتها فى الغابة التقطت بعض الحشرات الصغيرة)؛ وكانت تحك نفسها بنبات يسمى الحكّاك وتتثاءب و ترفع الحصى فى الهواء بقدميها الحافيتين وتنظر إلى ساقيها اللتين كانتا المتوردتين و سمينتين بشكل مقبول، وكان الطيب يستمر فى قراءة قصائد ثمانية الواحدة تلو الآخر دون أن يرفع عينيه عن الكتاب وذلك رغبة منه فى تهذيب عادات تلك الفتاة البدائية.

أما هى ـ ولأنها لم تكن تتابع قراءاته – وتشعر بالملل. فقامت وبهدوء شديد بتحريض عنزتها كى تلعق نصف وجه الطيب والبطة كى تجلس فوق الكتاب. فقفز الطيب للوراء، ورفع الكتاب إلى أعلى فانغلق، وفى هذه اللحظة عينها ظهر الشرير من بين الأشجار ممتطياً حصانه، وأطلق سهماً كبيراً فى اتجاه الطيب.

اصطدم حد السهم بالكتاب وقسمه نصفين بالطول. بقى جانب كعب الكتاب فى يد الطيب وأما

(*) من أهم أعمال تركواتو تاسو، شعر ملحمى مكون من ٢٠ نشيدًا عن الحروب الصليبية وفيها يصف الحرب والمواقف البطولية للمحاربين بالإضافة إلى تحليل واف للعلاقات الدبلوماسية والسياسية بين الدول المتصارعة (المترجمة).

الجزء الثانى فتبعثر ألف نصف ورقة فى الهواء. واختفى الشرير وهو يركض على حصانه، من المؤكد أنه كان يحاول أن يطيح بنصف رأس الطبيب ولكن الحيوانين وصلا فى الوقت المناسب. وأخذت صفحات "كتاب تاسو" (*) بهوامشها البيضاء وأشعارها المشطورة تتطاير فى الهواء واستقر بها الأمر فوق أغصان الصنوبر وفوق الحشائش وفوق مياه الأنهار . ومن حافة التل كانت باميلا تنظر مشهد الأوراق المتطايرة البيضاء وتقول: يا للجمال...

وصلت بعض أنصاف تلك الأوراق إلى الدرب وقت مرورنا أنا والطبيب تريلاونى، والتقط الطبيب إحداها وقلبها بين يديه، وحاول أن يفك رموز تلك الأبيات الشعرية التى لا بداية ولا نهاية لها وهزَّ رأسه وقال: ولكن، لا يوجد شىء مفهوم... تسئ تسئ... تسئ...

وصلت شهرة الطبيب حتى إلى الهوغونيين و كثيراً ما كان العجوز حزقيال يظهر واقفاً على أعلى درج فى الكرم الأصغر وهو ينظر إلى الدرب الصخرى الصاعد من الوادى. فسأله أحد أبنائه: أبى، أراك تنظر إلى الوادى وكأنك تنتظر وصول شخص...

فأجاب حزقيال: على الإنسان أن ينتظر، على الإنسان العادل أن ينتظر بإيمان أما الظالم فينتظر بخوف.

(*) كتاب أورشليم المحررة من تأليف تركوا توتاسوا.

- هل تنتظر الأعرج ذا الرجل الأخرى يا أبى؟

- هل سمعت عنه؟

- إنهم فى الوادى لا يتحدثون عن شىء آخر سوى المشطور الأعسر، ولكن هل تعتقد أنه سيأتى إلينا هنا؟

- إذا كانت أرضنا أرض أناس يعيشون للخير، وهو يعيش للخير، فما من سبب يمنع مجيئه.

- إن الدرب وعر خاصة لمن يجب أن يقطعه على عكاز.

حدث هذا بالفعل، فقد عثر شخص بقدم واحدة على جواد ليستخدمه ليصعد الدرب...

بمجرد أن رأى الهوغونيون الآخرون الأب حزقيال يتحدث حتى خرجوا من بين خطوط الكرم والتفوا حوله. وما أن سمعوه يذكر الفسكونت حتى أصابتهم رعدة و هم صامتون. قالوا: أبانا حزقيال، عندما أتى النحيف، فى تلك الليلة، وأحرقت الصاعقة نصف شجرة البلوط، قلت إنه ربما يزورنا عابر أفضل من ذلك يوماً ما.

أومأ حزقيال موافقاً بإيماءة وصلت فيها لحيته إلى صدره.

- إن من كنتما تتحدثان عنه الآن هو مشطور مشابه ومضاد للآخر، سواء فى جسده أو فى روحه: فهو رحيم بقدر قسوة الآخر. هل يمكن أن يكون هو الزائر الذى أعلنت عنه فى كلماتك؟

قال حزقيال:

- إن أى عابر من أى طريق يمكن أن يكون هذا الزائر.

عندئذ قال الهوغونيون: إذًا نتمنى جميعاً أن يكون هو.

كانت زوجة حزقيال تتقدم للأمام وهى تحدق بعينيها للأمام وهى تدفع عربة أغصان كرم رفيعة وقالت: نحن نتمنى دائماً أى شىء فيه خير ، ولذلك فإذا كان من يعرج على تلالنا ليس سوى ضحية حرب معوق، سواء كان شريراً أم طيباً، فعلينا أن نستمر فى العمل بالعدل وأن نزرع حقولنا.

أجابها الهوغونيون: هذا مفهوم، وهل قلنا شيئاً يعنى العكس؟

قالت المرأة: حسناً، إذاً كنا جميعاً موافقين، يمكننا أن نعود جميعاً للفئوس والمحاريث..

عندئذ انفجر حزقيال وقال: فليحل بكم الطاعون والمجاعة ! من أمركم بالتوقف عن العزق..

فتفرق الهوغونيون بين صفوف الأشجار للوصول إلى آلاتهم المتروكة فى الخطوط وفى تلك اللحظة، صرخ عيسو الذى - فى غفلة من أبيه - تسلق شجرة تين ليأكل ثمارها غير الناضجة قائلاً: هناك! من القادم على ذلك البغل؟!

كان هناك فى الواقع بغل يصعد الطريق حاملاً نصف رجل مربوط فوق سرجه، كان هو الطيب، وكان

قد اشترى هذا الحيوان العجوز المسكين بينما كانوا على وشك إغراقه فى مجرى المياه؛ لأن حالته كانت قد تدهورت، حتى أنه لم يكن يصلح للذبح.

وقال فى نفسه: عموماً أنا أزن نصف رجل فقط، ويستطيع البغل العجوز أن يتحملنى. وبما أنه سيكون لدى أنا ما أمتطيه يمكننى الذهاب لمسافة أبعد لأصنع الخير، وهكذا ذهب فى أولى رحلاته ليزور الهوغونيين.

تجمهر الهوغونيون لاستقباله، ووقفوا بثبات حوله يرتلون مزموراً .ثم اقترب منه العجوز وصافحه كأخ. وعندما نزل الطيب من فوق بغله، رد بكل مودة على تلك التحيات، وقبَّل يد زوجة حزقيال التى بقيت جامدة متجهمة الوجه، وسأل عن صحة الجميع، ومد يده ليربت على رأس عيسو خشنة الشعر فتقهقر للوراء، واهتم بمتاعب كل منهم ، واستمع إلى قصة اضطهادهم، وهو يتعاطف معهم ويدين الآخرين. ومن الطبيعى أنهم كانوا يتحدثون عن هذا الموضوع دون التركيز على الخلاف الدينى، وإنما على مجموعة من المآسى التى ترجع إلى الشر البشرى عامة .

وتغاضى مداردو عن أن الاضطهادات جاءت من قبل الكنيسة التى ينتمى إليها، ولم يتبحر الهوغونيون بدورهم فى تأكيدات إيمانية، خوفاً كذلك من أن يقولوا شيئاً خطأ لاهوتيا، وهكذا انتهى بهم الأمر إلى أحاديث مختلفة عن المحبة ورفض كل

ألوان العنف والتطرف، كان الجميع متفقين، ولكن الموقف كان في مجمله بارداً إلى حد ما.

ثم زار الطيب حقولهم، وتأثر بسبب ضآلة المحاصيل، ولكنه كان مسروراً لأنهم رغم ذلك قد جمعوا محصول شعير جيد.

وسألهم: بكم تبيعونه؟

أجاب حزقيال: الرطل بثلاثة اسكودات(*).

- ثلاث اسكودات؟! ولكن يا أصدقائي إن فقراء تيرالبا يتضوّرون جوعاً ولا يستطيعون شراء مجرد حفنة شعير. ألا تعلمون أن الأمطار الغزيرة قد دمرت محاصيل الشعير في الوادي وأنكم وحدكم يمكنكم تخفيف وطأة الجوع عن عائلات كثيرة؟

قال حزقيال: نعلم ذلك، ولهذا السبب بالذات يمكننا البيع جيداً.

- ولكن فكروا في الشفقة بأولئك الفقراء إذا خفضتم سعر الشعير. فكروا في الخير الذي يمكنكم عمله.

فوقف العجوز حزقيال أمام الطيب وهو يعقد ذراعيه وخلفه جميع الهوغونيين يقلدونه.

وقال: إن عمل الخير يا أخي لا يعني أن نخسر بخفض الأسعار...

(*) عملة منحوت على أحد وجهيها درع انتشرت في إيطاليا بدءًا من القرن السادس عشر.

وسار الطيب بين الحقول وهناك رأى هوغونيين مسنين وضعفاء كالهياكل العظمية يعزقون الأرض تحت حرارة الشمس.

قال لعجوز لحيته طويلة جداً حتى أنه كان يضرب بفأسه فوقها: إن لون بشرتك سيىء هل تشعر بالمرض؟

- وكيف يمكن أن يشعر شخص عمره سبعون عاماً ويعزق الأرض لعشر ساعات وليس فى جوفه سوى حساء اللفت.

قال حزقيال: إنه ابن عمى آدم، عامل لا مثيل له

و بينما كان الطيب يقول - ولكن عليك أن تستريح وتتغذى فى سنك المتقدم هذه ـ جذبه حزقيال بعيداً بحزم و قال بلهجة لا تسمح بأى تعليق: إننا جميعنا هنا نكسب خبزنا بطريقة قاسية جداً يا أخى...

فى البداية، عندما ترجل عن بغله، أراد الطيب أن يربط بغلته بنفسه وكان قد طلب كيس علف لتعويض البغل عن تعبه فى الصعود. وقتها نظر حزقيال وزوجته أحدهما للآخر، فقد كان يكفى حسب رأيهما حزمة من الشيكوريا البرية لتغذية البغل، ولكنهما كانا فى أكثر لحظات استقبال الضيف حرارة ، فأحضرا العلف.

ولكن العجوز حزقيال الآن، وبعد أن فكر فى الأمر، لم يستطع أن يتحمل فكرة أن يأكل هذا البغل

الهزيل العلف الباقى لديهم، ودون أن يستمع إلى ضيفه نادى على ابنه عيسو وقال له: عيسو اذهب بهدوء إلى البغل، وخذ منه العلف، وأعطِه أى شىء آخر.

- دواء للربو؟

- أعطه قلاحات ذرة، قشر حمص، أعطِه ما تريد.

ذهب عيسو، ونزع الكيس من أمام البغل، وأخذ رفسة جعلته يعرج لفترة. فخبأ العلف المتبقى لينتقم لنفسه ببيعه لحسابه الخاص ، وقال إن البغل قد أكله كله.

حل وقت الغروب، وكان الطيب مع الهوغونيين وسط الحقول ولم يعرفوا ماذا يقول أكثر من هذا.

قالت زوجة حزقيال: أمامنا ساعة أخرى من العمل أيها الضيف.

- إذًا لن أزعجكم أكثر من ذلك.

- حظاً سعيداً أيها الضيف.

فعاد مداردو الطيب فوق بغله.

وعندما انصرف قالت المرأة: إنه ضحية من ضحايا الحرب، كثيرون مثله فى هذه المنطقة... مساكين...

وشاركها كل أفراد العائلة قائلين: مساكين بالفعل.

- فليحل بكم الطاعون والمجاعة ! هكذا أخذ العجوز حزقيال يصرخ وهو يتجول بين الحقول وقبضتاه فى الهواء و هو يرى أن العمل لم يتم حسب الأصول و يرى أضرار الجفاف.

- فليحل بكم الطاعون والمجاعة...

(٩)

كثيراً ما كنت أذهب فى الصباح لمحل بيتروكيودو لأرى الآلات التى ينفذها المعلم العبقرى، وكانت آلام النجار و تأنيب ضميره فى ازدياد مستمر منذ أن بدأ الطبيب يذهب لزيارته ليلاً لتوبيخه على الهدف الشرير من اختراعاته، وكان يحفزه على تنفيذ آلات تخدم الخير، لا التعطش للتعذيب.

وكان بيتروكيودو يسأل: أى آلات يجب أن أقوم بصنعها يا سيد مداردو؟

- الآن سأشرح لك، يمكنك على سبيل المثال...

وهكذا كان الطبيب يبدأ فى وصف الآلة التى كان من الممكن أن يطلبها هو، لو كان هو الفسكونت بدلاً من نصفه الآخر، وكان يستعين فى شرحه برسم تصميمات مضطربة. فى البداية بدت تلك الآلة لبيتروكيودو كأنها آلة "أورج"، آلة "أورج" عملاقة

تصدر مفاتيحها موسيقى بالغة العذوبة ، وكان قد بدأ بالفعل فى البحث عن الخشب المناسب للقصبات ، عندما عادت أفكاره لتصبح أكثر ارتباكاً بعد حديث له مع الطيب، فقد بدا أنه يريد أن يمرر من تلك القصبات دقيقاً وليس هواء. إذًا فالآلة ليست آلة موسيقية بل مطحنة، تطحن القمح للفقراء، ومن الممكن أن تصبح أيضاً فرناً يخبز الخبز.

و كان الطيب يزيدكل يوم من كمال فكرته ويملأ أوراقاً وأوراقاً بالتصميمات غير الدقيقة ولكن بيتروكيودو لم يكن قادراً على متابعته: لأن تلك الآلة الموسيقية، والمطحنة والفرن يجب أيضاً أن تسحب المياه من الآبار وذلك لإراحة الحمير، وأن تتحرك على عجلات لتخدم مختلف القرى ، وعليها أيضاً فى أيام الأعياد أن تعلق فى الهواء فتصطاد الفراشات بشباك تحيط بها من كل جانب.

وشك النجار فى أن صنع آلات خيرة قد يكون شيئاً أبعد من إمكانات البشر، بينما الآلات التى تعمل بصورة جيدة ودقيقة هى المشانق و آلات التعذيب.

و فى الحقيقة أنه بمجرد ما كان الشرير يعرض على بيتروكيودو فكرة آلة جديدة، حتى كانت تخطر له طريقة تنفيذها فيبدأ العمل فوراً، و كانت كل قطعة من قطع الآلة تبدو له كاملة لا بديل لها، وكانت الآلة عند اكتمالها تبدو له إحدى روائع التقنية و الإبداع.

و كان النجار يتضايق فى نفسه و يقول: ألعل الشر الكامن فى نفسى هو الذى يجعلنى أنجح فى بناء آلات إجرامية فقط؟ ولكنه فى نفس الوقت كان يستمر بحماس ومهارة فى اختراع آلات تعذيب أخرى.

وفى يوم من الأيام رأيته يعمل فى مشنقة غريبة، فيها كانت مشنقة بيضاء تحيط بسطح خشبى أسود، والحبل الأبيض أيضاً يجرى من خلال ثقبين فى السطح، من نقطة بداية حبل عقدة المشنقة.

سألته: ما هذه الآلة يا معلم؟

قال: مشنقة لتشنق "البروفيل"

- ولمن صنعتها؟

- لرجل واحد يُدين ويُدان. فهو بنصف رأسه يحكم على نفسه بالموت، وبالنصف الآخر يدخل إلى عقدة حبل المشنقة ويطلق النفس الأخير، أتمنى أن يختلط الأمر بين الاثنين.

وفهمت أن الشرير عندما شعر بارتفاع شعبية النصف الطيب من نفسه، عقد العزم على القضاء عليه فى أقرب وقت ممكن.

وبالفعل استدعى الحراس وقال لهم.

إن هناك متمرداً طليقاً منذ وقت طويل يفسد أراضينا ويحرض الجميع، وقبل الغد يجب أن تقبضوا عليه وتقدموه للإعدام.

قال الحراس: تماماً يا سيدى. وانصرفوا.

وبما أنه كان ذا عين واحدة لم يلحظ الشرير أنهم كانوا يتغامزون فيما بينهم وهم يحييونه. فقد كانت هناك مؤامرة قد دبرت فى القصر فى تلك الأيام وكان الحراس أيضاً مشاركين فيها، كان الأمر يتعلق بسجن نصف الفسكونت الحالى والقضاء عليه وتسليم القصر واللقب للنصف الآخر، ولم يكن هذا الأخير يعرف شيئاً...

وفى الليل، وفى مخزن التبن حيث كان يسكن، استيقظ فوجد الحراس يحاصرونه.

قال له قائد الحرس: لا تَخَف، إن الفسكونت قد أرسلنا لنغتالك، ولكننا قررنا أن نغتاله هو وأن نضعك مكانه بعد أن أتعبنا طغيانه القاسى.

- ما هذا الذى أسمع؟ وهل فعلتم هذا بالفعل؟ أقصد: هل اغتلتم الفسكونت بالفعل؟

- لا، ولكننا سنقوم بذلك دون شك صباح باكر.

- آه، شكراً لله. لا، لا تلطخوا أنفسكم بدماء أخرى، لأن دماء كثيرة قد أهرقت بالفعل. أى خير يمكن أن يجلبه حكم مبنى على الجريمة؟

- لا بأس: فلنحبسه فى البرج لنبقى فى أمان

- أستحلفكم بالله: لا ترفعوا أيديكم عليه ولا على أى إنسان آخر. أنا أيضاً يؤلمنى طغيان الفسكونت: ولكن لا يوجد علاج آخر سوى إعطائه القدوة الصالحة، وأن نظهر له أخلاقنا الطيبة وفضائلنا.

- إذاً، يجب أن نغتالك أنت يا سيدى.

- لا.. قلت لكم يجب ألا تغتالوا أحداً.

- وكيف هذا؟ إذا لم نقضِ على الفسكونت فيجب علينا طاعته.

- خذوا هذه القارورة ، إنها تحتوى على بعض أوقيات من آخر ما تبقى لى من البلسم الذى عالجنى به النساك المتوحدون فى بوهيميا والذى يفيدنى حتى الآن عند تغير الجو وعندما تؤلمنى خياطة الجرح البالغ. خذوه إلى الفسكونت وقولوا له فقط: هذه هدية شخص يعرف معنى انتهاء الأوردة بصمام .

ذهب الحراس إلى الفسكونت بالقارورة، فحكم عليهم بالشنق. ولإنقاذ الحراس قرر باقى المتآمرين أن يتمردوا. و لعدم خبرتهم كشفوا خطة الثورة التى أُخمدت بهرق الدماء، وحمل الطيب الزهور إلى قبورهم وواسى الأرامل والأيتام.

كانت المربية سيباستينا هى الوحيدة التى لم تتأثر بطيبة الطيب. فعندما كان يذهب الطيب للقيام بأعماله الشهمة كان يتوقف كثيراً فى كوخ المربية ليزورها، وكان دائماً مهذباً مهتماً بها. أما هى فقد كانت تلومه كل مرة. ربما بسبب حبها الأموى الذى لا يعرف التمييز ، وربما لأن تقدمها فى السن يشوش أفكارها ، لم تكن المربية لم تضع فى حسبانها انفصال مداردو إلى نصفين: فكانت تلوم نصفاً على أعمال النصف الآخر السيئة، وكانت تسدى لأحدهما

النصائح التى لم يكن لينفذها سوى الجزء الآخر... وهكذا..

- ولماذا قطعت رأس ديك الجدة بيجين المسكينة و ليس لها سواه؟ شخص كبير مثلك، يقوم بعمل كهذا...

- ولكن لماذا تقولين لى هذا يا مربية؟ أنت تعرفين أنه لم أكن أنا...

- حسناً... لنستمع قليلاً من كان إذاً؟

- أنا. ولكن...

- آه، أترى... ؟

- ولكن لست أنا الموجود هنا...

- إيه، هل تعتقد أننى بسبب تقدمى فى السن قد أصبحت مُخرفة أيضاً؟ إننى بمجرد أن أسمع بحدوث أى شىء همجى أُدرك على الفور أنه من عمل يديك. وأقول لنفسى: أقسم إن هذا من فعل مداردو.

-ولكنك مخطئة...!

- أخطئ... أنتم الشباب تقولون إننا نحن ـ المسنين ـ نخطئ.. وأنتم؟ أنت قد أهديت عكازك إلى إزيدورو العجوز...

- نعم، هذا ما قمت به أنا.

- أتفتخر بهذا؟ لقد استخدمه فى ضرب زوجته المسكينة...

- لقد قال لى إنه لا يستطيع السير بسبب آلام مفاصله.

- لقد خدعك... وأنت تعطيه على الفور عكازك..و ها هو قد كسره على ظهر زوجته. بينما تتجول أنت مستنداً على فرع شجرة ضعيف... إنك بلا عقل.. أتعلم هذا؟ نعم أنت هكذا دائماً. وعندماسقيت ثور برناردو نبيذ الجرابا حتى الثمالة؟

- هذا لم أفعله أنا...

- آه لم تكن أنت! الجميع يقولون: إنه هو دائماً، الفسكونت.

لم تكن زيارات الطيب إلى براتوفونجو سببها تعلقه البنوى هذا بمربيته فقط ولكنه فى ذلك الوقت كان قد كرس وقته لإسعاف مرضى الجذام المساكين. فبعد أن حصّن نفسه من العدوى - ويبدو أن هذا بسبب علاج الناسكين الغامض - أخذ يتجول فى القرية يسأل بدقة عن احتياجات كل منهم، ولا يتركهم إلا عندما يبذل كل ما يستطيع فى سبيلهم بجميع الطرق . كثيراً ما كان يقوم فوق ظهر بغله بجولة مكوكية بين براتوفونجو وكوخ الطبيب تريلاونى، ليسأله النصح والدواء.

و لا يعنى هذا أن الطبيب قد واتته الشجاعة الآن ليقترب من مرضى الجزام، ولكن يبدو أنه قد بدأ يهتم بهم عن طريق وساطة مداردو الطيب.

ولكن نية خالى كانت أبعد من ذلك: لم يكن ينوى أن يعالج فقط أجساد مرضى الجزام، وإنما نفوسهم أيضاً، وكان يقف دائماً وسطهم يتدخل فى شئونهم الخاصة يحرجهم ويعظهم.. ولم يعد فى استطاعة مرضى الجذام تحمله..

فالأوقات السعيدة والإباحية فى براتوفونجو قد ولت.. فبظهور هذا الوجه البشوش الواقف على قدم واحدة، والذى يرتدى السواد، ويصدر أحكاماً، لم يعد أحدهم يستطيع أن يقوم بما يرغب دون أن يُواجّه فى الميدان مما يثير كل إساءة ونكاية... حتى الموسيقى، كان بمجرد سماع إدانته لها لأنها لا قيمة لها ، وماجنة وليست نابعة من أحاسيس طيبة تصيبهم الكآبة فيهملون آلاتهم الموسيقية التى غطاها التراب. أما النساء المريضات بالجذام فبدون تنفيسهن بأعمال العربدة وجدن أنفسهن وحيدات فجأة أمام المرض، وكن يقضين الليالى باكيات مولولات .

وبدءوا فى براتوفونجو يقولون : إن الطيب هو أسوأ النصفين.

ولم يقل الإعجاب بالطيب فى براتوفونجو فقط بل كان الجميع يقولون: من حسن الحظ أن طلقة المدفع قسمته فقط إلى نصفين، من يعرف ماذا كنا سنرى لو أنه قد انقسم إلى ثلاثة.

و بدأ الهوغونيون فى عمل دوريات حراسة ليحموا أنفسهم من الطيب أيضاً، إذ فقد كل احترامه لهم وكان يذهب فى ساعات متفرقة ليتجسس عدد الأكياس الموجودة فى مخازنهم ويعظهم بسبب أسعارهم المرتفعة جداً، وبعد ذلك كان يذهب ليتحدث عن هذا فى كل مكان فيحطم بذلك تجارتهم.

هكذا كانت الأيام تمر فى تيرالبا، وكانت مشاعرنا تزداد كآبة وضيقاً، لأننا شعرنا بالضياع بين شر وفضيلة وكلاهما غير إنسانى.

(١٠)

مامن ليلة قمرية إلا وتتشابك فيها الأفكار الدنيئة في الأرواح الشريرة كأنها جحر الثعابين، وإلا تتفتح فيها فى الأرواح الطيبة أفكار التضحية والتفانى. وهكذا و بين منحدرى تيرالبا سار شطرا مداردو تعذبهما فكرتان متضادتان .

فقد اتخذ كل منهما قراره وفى الصباح تحركا لتنفيذهما .

فبينما كانت والدة باميلا ذاهبة لتحضر المياه سقطت فى شرك وغاصت فى البئر، وأخذت تصرخ طلباً للنجدة وهى تتعلق بحبل . وعندئذ رأت عند دائرة البئر هيئة الشرير تظهر فى الأفق وهو يقول:

- كنت أريد فقط أن أتحدث معك. سأقول لك ما فكرت فيه. فبصحبة ابنتك باميلا يظهر كثيراً متشرد مشطور يجب أن تجبريه على الزواج منها: لقد شوه

سمعتها فإذا كان إنساناً مهذباً فعليه أن يصلح غلطته. لقد فكرت فى هذا ولا تسألينى أن أشرح لك شيئاً آخر..

وكان والد باميلا يحمل جوالاً من زيتون مزرعته إلى المعصرة، ولكن الجوال كان به ثقب وأخذ الزيتون يسقط طوال الدرب. وعندما شعر بأن حمله قد خف، أنزل الأب الجوال من فوق كتفه وأدرك أنه كان فارغاً تقريباً، ولكنه رأى الطيب قادماً من خلفه؛ كان يجمع الزيتون حبة تلو الأخرى ويضعه فى عباءته...

- كنت أتبعك لأتحدث معك، وكان لى الحظ السعيد أن أنقذ لك زيتونك. إليك ما أحمله فى قلبى. منذ وقت طويل وأنا أفكر أن تعاسة الآخر - الذى أقصد إنقاذه - ربما تكمن فى وجودى.سأرحل من تيرالبا، ولكن فقط إذا كان رحيلى هذا سيعيد السلام لشخصين: لابنتك التى تنام فى عرين بينما هى تستحق نصيباً نبيلاً، وبين جزئى الأيمن التعس الذى لا يجب أن يبقى وحيداً هكذا، إن باميلا والفسكونت يجب أن يجمعهما رباط الزواج.

كانت باميلا تدرب سنجاباً عندما قابلت والدتها التى تظاهرت بأنها تجمع ثمار الصنوبر.

قالت أمها: باميلا، لقد حان الوقت ليتزوجك ذلك المتشرد المدعو: الطيب.

قالت باميلا: من أين جاءتك هذه الفكرة؟

-لقد شوه سمعتك، فيجب أن يتزوجك، إنه مهذب إلى الحد الذى إذا قلت له هذا فلن يرفض.

- ولكن كيف نسجت فى خيالك هذه القصة؟

- اخرسى: لو علمت من قالها لى فلن تسألى عن أى شىء آخر: إن الشرير شخصياً هو الذى قال لى هذا، الفسكونت المبجل..

- يااللمصيبة ! قالت باميلا هذا تاركة السنجاب يسقط من فوق حجرها- من يدرى ما الشرك الذى يريد إعداده.

وبعد قليل ، كانت تتعلم كيف تصفر بورقة شجر بين يديها عندما قابلها والدها الذى كان يتظاهر بجمع الحطب.

قال والدها: باميلا، حان الوقت أن توافقى على طلب الفسكونت بالزواج بشرط أن تتزوجا فى الكنيسة.

- هل هى فكرتك أم قالها لك أحد؟

- ألا تعجبك فكرة أن تصبحى كونتيسة.

- أجب على سؤالى.

- حسناً. تصورى أن من يقول هذا أسمى نفس فى الوجود: إنه المتشرد الذى يطلقون عليه اسم "الطيب".

- آه، إن ذاك لم يعد لديه شىء آخر يفكر فيه.. سترى ماذا سأفعل.

كان الشرير يفكر فى خطته و هو يمتطى جواده النحيف عبر الأدغال: إذا تزوجت باميلا من الطيب، فإنها أمام القانون ستكون زوجة مداردو دى تيرالبا، أى زوجته هو.

واستناداً إلى هذا الحق، سيكون للشرير أن ينتزعها بسهولة من منافسه الذى يستسلم بسهولة ولا يناضل.

ولكنه يقابل باميلا التى تقول له: أيها الفسكونت، لقد قررت أن نتزوج إذا كنت موافقاً على هذا.

قال الفسكونت: أنت، ومن؟

- أنا وأنت وسآتى إلى القصر وأصبح الكونتيسة.

لم يكن الشرير يتوقع هذا وفكر قائلاً: إذاً لا فائدة من حبك تلك المسرحية و من أن أجعلها تتزوج نصفى الآخر: لأتزوجها أنا وبذلك يتم لى كل شىء.

وهكذا قال: موافق.

قالت له باميلا: اتفق إذاً مع أبى..

وبعد ذلك بقليل، قابلت باميلا الطيب فوق بغله.

قالت له: مداردو، لقد فهمت أننى مغرمة بك، فإذا كنت تريد إسعادى يجب أن تطلب يدى للزواج.

أما المسكين الذى كان قد ضحى مبدياً تنازله من أجل إسعادها فقد شعر بالذهول.

وفكر: ولكن إذا كانت سعيدة بزواجها منى، لا يمكننى أن أزوجها للآخر وقال: سأجرى لإعداد كل شيء لمراسم الزفاف يا عزيزتى.

قالت له: أوصيك بأن تتفق على كل شيء مع والدتى..

انقلبت تيرالبا كلها رأساً على عقب عندما انتشر خبر زواج باميلا.

هناك من يقول إنها ستتزوج الأول، ومن يقول إنها ستتزوج الآخر، وأن والديها على ما يبدو كانا يقصدان أن يبلبلا الأفكار. أما فى القصر فكانوا يلمعون ويزينون كل شيء كأنهم يستعدون لحفل كبير، وأمر الفسكونت بإعداد رداء من القطيفة السوداء به كم منتفخ بالهواء وانتفاخ آخر فى سرواله.

وقام المتشرد أيضاً بتمشيط بغله المسكين ورتق كوع ردائه وركبته. وعلى كل حال فقد تم تلميع كل الشمعدانات فى الكنيسة. و قالت باميلا إنها لن تترك الغابة إلا إلى موكب العرس، وكنت أنا أقوم بشراء لوازم العروس. فحاكت باميلا رداء أبيض بطرحة وبذيل طويل للغاية، وقامت بصنع إكليل وحزام من سنابل اللافندر الخزامى، ولما تبقى من قماش الطرحة بضعة أمتار فقد قامت بصنع رداء عرس للعنزة ورداء آخر للبطة، وأخذت تجرى هكذا فى الغابة يتبعها حيواناتها، حتى تمزقت الطرحة كلها بين الأغصان، وجمع ذيل الفستان جميع أشواك الصنوبر وأشواك الكستناء الجافة عبر المدقات.

ولكنها في الليلة السابقة للعرس كانت قلقة وخائفة شيئاً ما.

فقد كانت تجلس على قمة إحد التلال الصغيرة الخالية من الأشجار وذيل الفستان ملتف حول قدميها والتاج المصنوع من لافندر الخزامى يميل على رأسها ، وكانت تسند ذقنها بيدها وتنظر إلى الغابات حولها وهى تتنهد.

وكنت أنا معها دائماً لأنه كان علىّ أن أقوم بدور وصيف الشرف بالاشتراك مع عيسو الذى لم يحضر أبداً .

سألتها: باميلا، من ستتزوجين ؟

قالت: لا أعلم، لا أعلم ماذا سيحدث بالضبط. هل سينتهى كل شىء على ما يرام؟ أم ستكون النهاية سيئة؟

من الغابات كان يصل الى أسماعنا نوع من الصرخات المدوية أحياناً و من التنهد أحياناً أخرى. كان مصدر الصوت هو العريسان المشطوران، واللذان كانا ساهرين من فرط انفعالهما فى ليلة عرسهما يتجولان بين المنحدرات الوعرة ومنحدرات الغابة، متشحين بعباءتيهما السوداوين. أحدهما يمتطى جواده النحيل ، والآخر فوق بغله المتسلخ، وكانا يزأران ويتنهدان مأخوذَيْن بتخيلاتهما القلقة. وكان الجواد يقفز فوق الصخور والمساقط، والبغل يتسلق المطالع والمحاور دون أن يتلاقى الفارسان.

واستمر الحال هكذا إلى أن زل حافرا الحصان عند الفجر إثر تعثره ليركض لينتهى به الأمر فى واد سحيق، وهكذا لم يستطع الشرير الوصول الى العرس فى الوقت المناسب. أما البغل فعلى العكس من ذلك كان يسير رويداً رويداً و هكذا وصل الطبيب الى الكنيسة فى موعده تماماً، فى الوقت الذى وصلت فيه العروس، بينما كنت أنا وعيسو نمسك لها ذيل الفستان و كان عيسو يتجرجر خلفها.

وأصيبت الجموع بإحباط عندما رأت أن العريس الذى وصل مستنداً على عكازه هو الطبيب ، وتم عقد مراسم الزواج، ووافق عليه العريسان وتبادلا الخاتمين، وقال الكاهن: يا مداردو دى تيرالبا، باميلا ماركولفى: إننى أجمعكما برباط الزواج.

وفى تلك اللحظة ظهر الفسكونت من آخر الرواق، دخل يستند على عكازه بردائه الجديد القطيفة وقد أبتل وتمزق وقال: إن مداردو دى تيرالبا هو أنا وباميلا هى زوجتى.

فتقدم الطبيب بصعوبة ليقف أمامه وقال: لا، إن مداردو الذى تزوج باميلا هو أنا.

ألقى الشرير بعكازه بعيداً وأمسك بسيفه، ولم يبق للطيب سوى أن يفعل نفس الشىء .

- إلى المبارزة.

بدأ الشرير الهجوم، ووقف الطيب موقف الدفاع ولكن كلاً منهما تدحرج وسقطا أرضاً.

واتفقا أنه من المستحيل أن يتصارعا و كل منهما يقف على قدم واحدة فقط، وكان من الضرورى تأجيل المبارزة ليتمكنا من إعدادها بصورة أفضل.

وقالت باميلا: وأنا، أتعلمان ماذا سأفعل؟ سأعود إلى الغابة. وجرت مبتعدة عن الكنيسة دون أى وصيف شرف يحمل لها ذيل الفستان، وفوق الجسر وجدت عنزتها وبطتها اللتين كانتا فى انتظارها ورافقتاها راكضتين.

وتم تحديد ميعاد المبارزة فى فجراليوم التالى فى مرج الراهبات.

واخترع السيد بيتروكيودو نوعاً من الأقدام التعويضية التى يثبتها فى وسط كل من المشطورين بحيث تسمح لهما بأن يقفا ثابتين وأن يتحركا أو ينحنيا للأمام وللخلف وذلك بتثبيت طرفه فى الأرض ليبقيا واقفين .

وكان الحكم هو المجذوم جالاتيو الذى كان من النبلاء قبل مرضه و كان مساعدا الشرير هما والد باميلا وقائد الحرس، أما مساعدا الطيب فكانا اثنين من الهوغونيين.

واستعد الطبيب تيرلاونى الاستعداد الطبى و ذلك بأن حضر ومعه لفات من الضمادات ووعاءً زجاجياً

كبيراً مملوءًا بالبلسم، وكأنه سيعالج فى معركة كبيرة. ومن حسن حظى كان علىَّ مساعدته فى حمل جميع تلك الاشياء ، وهكذا استطعت أن أشهد القتال.

كان الفجر مائلا للخضرة و فوق المرج وقف الفارسان النحيفان المتبارزان فى ملابسهما السوداء وفى يديهما السيفان فى وضع الاستعداد.

أطلق المجذوم نفيره وكانت هذه هى الإشارة؛ واهتزّت السماء كأنها غشاء مشدود، والفئران فى جحورها أخذت غرست أظافرها فى الأرض، وطيور اللقلق نزعت ريشة من إبطها وتتألم دون أن ترفع رءوسها من تحت أجنحتها، وأفواه ديدان الأرض أكلت ذيولها، والأفعى لدغت نفسها بأسنانها، والدبور حطم إبرته فوق الصخور، و كان كل شىء ينقلب على نفسه: تحول صقيع الآبار إلى ثلج ، والطحالب تحولت الى صخور والصخور الى طحالب، و الأوراق الجافة تحولت إلى تراب، وأخذ الصمغ السميك الشديد يقتل الأشجار و لا مفر . هكذا الإنسان ،كان يهاجم نفسه بيديه الممسكة كل منهما بسيف.

و مرة أخرى أثبت بيتروكيودو مهارته: كانت الأطراف الصناعية برجلية الهيئة ترسم دوائر فوق المرج، وأخذ المتبارزان يندفعان فى هجمات خشبية سريعة فى الصد وفى المراوغة دون أن يمس أحدهما الأخر وفى كل ضربة هجومية كان طرف

السيف يبدو كأنه يتجه بثقة تجاه عباءة الخصم المتطايرة ، و كان يبدو أُنّ كلاً منهما يصر على الهجوم على الجزء الفارغ ، أى نحو الجزء الذى كان من المفروض أن يكون هو نفسه. من المؤكد، أنهّ لو كان بدلاً من النصفين المتبارزين كان هناك متبارزان كَامِلان، لأصاب كلٌّ منهما الآخر إصابات لا حد لها .

كان الشرير يهاجم بوحشية غاضبة، ولكنه ما كان قادراً على أن يجعل هجماته تصل بالفعل إلى خصمه، أما الطيب فقد كان يتمتع بمهارة المبارز الأعسر ولكنه لم يكن يفعل سوى أن يمزق عباءة الفسكونت.

وفى لحظة معينة تلاقى طرفا سيفيهما . وانغرس طرفا البرجل فى التربة كأنهما محراثان.

تحرر الشرير بحركة عنيفة وكاد أن يفقد توازنه ويتدحرج على الأرض عندما نجح فى توجيه ضربة قاطعة، ليست فى وسط جسده بل تكاد : كانت ضربة قاطعة توازى الخط الذى كان يقطع جسد الطيب، وقريبة منه إلى حد أنه لم يمكن تحديد إن كا ن القطع هنا أم هناك . ولكننا سرعان ما رأينا الدماء تتدفق من الجسد أسفل العباءة بدءاً من الرأس حتى وصلة الساق ، ولم يعد هناك أدنى شك. انحنى الطيب أرضاً، ولكنه أثناء سقوطه، وفى حركة متسعة تكاد أن تكون رحيمة، ضرب بسيفه هو أيضاً قريباً

جداً من الخصم من رأسه حتى بطنه بين الحد الذى لا يوجد فيه جسد الشرير والجزء الذى يبدأ منه. وتدفقت الدماء من جسد الشرير أيضاً فى القطع القديم كله: فقطعت ضربة سيف كل منهما جميع الأوردة وفتحا من جديد الجرح الذى شطرهما ، من الجانبين.

والآن ها هما قد انبطحا، وعادت الدماء التى كانت دماً واحداً لتختلط فى المرج.

لم أهتم بتريلاونى إذ أخذت بهذا المشهد، وعندما انتبهت أدركت أنّ الطبيب كان يقفز فرحاً بساقيه الرفيعتين وهو يصفق بيديه ويصرخ: لقد نجا، لقد نجا... اتركونى أتصرف..

وبعد نصف ساعة أعدنا إلى القصر جريحاً واحداً. فقد رُبِط كل من الشرير والطيب بالضمادات معاً بقوة، وقد اهتم الطبيب بأن يصل جميع الأُمعاء والشرايين من ناحية لأخرى. وبعد ذلك - وبضمادات يصل طولها إلى كيلو متر - قام بضمِّهما بقوة ، حتى كان مداردو يبدو شخصاً محنطاً لامجرد جريح.

رقد خالى تحت الرعاية أياماً وليال بين الحياة والموت. وفى صباح أحد الأيام، وبينما كانت المربية سيباستينا تنظر إلى ذلك الوجه الذى يمر به شريط أحمر اللون من الجبهة ليصل إلى الذقن ويستمر بعدها ليصل إلى الرقبة، قالت: ها هو قد تحرك..!

فقد أخذت مجموعة من الملامح تنبض لتظهر على وجه خالى، وبكى الطبيب فرحاً عندما رأى أن هذا قد انتقل من وجنة إلى الأخرى..

وفى النهاية فتح مداردو عينيه وشفتيه.

فى البداية كان تعبير وجهه مختلطاً: كانت إحدى عينيه مقطبة والأخرى مسترخية، وكانت جبهته متجهمة من ناحية وناعمة من الناحية الآخرى ، وكان فمه يبتسم من ناحية ومن الأخرى يضغط على أسنانه. ثم عاد ليتّسق رويداً رويداً.

وقال الطبيب تريلاونى: الآن قد تماثل للشفاء...

وهتفت باميلا: أخيراً سيكون لى زوج كامل!

وهكذا عاد خالى مداردو رجلاً كاملاً، لم يعد شريراً أو طيباً وبل خليطاً من الشر والخير. وهذا - فى الظاهر - لا يختلف عمّا كان قبل أن يُشطر . ولكن أصبحت لديه خبرة كل نصف منهما مجتمعين معًا، ولذلك صار حكيماً جداً. وكانت حياته سعيدة، ورزِق بأبناء كثيرين وكان حكمه عادلاً، وتغيرت حياتنا إلى الأفضل. وربما كان من المتوقع لنا أنه بعودة الفسكونت كاملاً سيبدأ عصراً من السعادة الغامرة، إلا أنه من الواضح أن وجود فسكونت كامل لايكفى حتى يكتمل العالم كله.

وفى الوقت نفسه لم يعد بتروكيودو يبنى مشانق بل طواحين هواء، وأهمل تريلاونى أضواء المقابر

ليهتم بأمراض الحصبة والأمراض الجلدية. أما أنا، فوسط كل هذا الحماس للكمال، كنت أشعر دائماً بمزيد من الحزن والنقص. فأحياناً يعتقد الإنسان أنه غير كامل لمجرد أنه ما زال صغيراً.

كنت قد وصلت إلى أعتاب سن المراهقة وكنت مازلت أختبئ بين جذور الأشجار الضخمة لأقص على نفسى قصصاً، كان شوك الصنوبر يمكن أن يمثل بالنسبة لى فارساً، أو سيدة أو مهرجاً، وكنت أحركه أمامى وأندمج فى قصص لا تنتهى. وبعد ذلك كان الخجل يعترينى من تلك التخيلات فأفر هارباً.

وجاء اليوم الذى هجرنى فيه الطبيب تريلاونى أيضاً. ففى صباح أحد الأيام وصل إلى خليجنا أسطول من مراكب الدرابزين والتى كانت تحمل العلم البريطانى ووقف على الساحل.

وجاءت تيراليا بكاملها إلى الشاطئ لتراه فيما عداى لأننى لم أكن أعلم بالأمر .

وأمام حواجز الأسوار وعلى صوارى السفن، كان هناك العديد من البحَّارة الذين يبيعون الأناناس والسلاحف ويفردون لوحات كتبت عليها أقوال مأثورة باللاتينية والإنجليزية.

وأمام الدفة، وأمام الضباط ، كان الكابتن كوك وهو يرتدى القبعة ثلاثية القرون، والشعر المستعار يتفحص الشاطئ بنظارته المعظمة وما أن رأى الطبيب تريلاونى حتى أصدر أوامره أن ينقلوا له

رسالة بالأعلام تقول: تعالَ إلى متن السفينة حالاً يا دكتور، يجب أن نكمل دور "لعبة الورق".

فصافح الطبيب الجميع فى تيرالبا وتركنا.

وأخذ البحَّارة ينشدون نشيد "آه يا أستراليا" وصعد الطبيب على متن السفينة و امتطى ظهر برميل نبيذ "كانارونى" ثم رفعت المراكب مراسيها.

لم أر شيئاً من كل هذا. فقد كنت مختبئاً فى الغابة أقص على نفسى قصصاً، وعرفت ما حدث بعد فوات الأوان، وأخذت أجرى تجاه المرسى، وأنا أصرخ قائلاً: يا دكتور تريلاونى. خذنى معك..لا تتركنى هنا يا دكتور..

ولكن المراكب كانت قد أخذت تختفى عند الأفق ومكثت أنا هنا، فى هذا العالم الملىء بالمسئولية وبأضواء المقابر.

(١٩٥١)

بطل الرواية، فسكونت تيرالباً وهو من إحدى أعرق العائلات فى جنوة، يذهب ليشارك فى الحرب، فيعينه الإمبراطور ملازماً بالجيش. تشطره قذيفة طولياً إلى نصفين، كل نصف منهما يذهب إلى حال سبيله.

يستغرق زمن الرواية رحلة النصف الخير، والنصف الشرير، وصراعهما حتى تنتهى باتحاد شطرى "الفسكونت" ليعود إنساناً كاملاً، كمالاً جديداً محملاً بخبرات صراع النصفين اللذين ظا يسعيان للوصول إلى كمال كل منهما الذى لم يتحقق إلا بالتحامه بالآخر.



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٦,٥٠ جنيه